قضايا فكرية وردود إسلامية

شبوهات قضية تعدد الزوجات
إنجيل برنابا في الميزان

كتبه
مصطفى عايد إسعيفان





قال -تعالى-:

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ
أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾

[الكهف:١٠٩]

قضايا فكرية

وردود إسلامية

قضايا فكرية
وردود اسلامية

شبهات في قضية تعدد الزوجات

انجيل برنابا في الميزان

كتبه

مصطفى عايد اسعيفان

الطبعة الأولى

2009م /1430 هـ



دار البداية ناشرون وموزعون

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2008/6/1999)

211
اسعيفان ، مصطفى
قضايا فكرية وردود اسلامية/ مصطفى عايد محمود اسعيفان
. _ عمان: دار البداية، 2008.
(   ) ص.
ر.أ: (1999 / 6 / 2008)
الواصفات:/ الثقافة الاسلامية//الفكر الاجتماعي/الثقافة الجماهرية/الفكر السياسي

* إعدادت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية

الطبعة الأولى

2009م – 1430هـ



دار البداية ناشرون وموزعون
عمان - شارع الملك حسين مجمع الفحيص التجاري
هاتف: ٠٠٩٦٢٦٤٦٤٠٦٧٩ تلفاكس: ٠٠٩٦٢٦٤٦٤٠٥٩٧
ص.ب ٥١٠٣٣٦ عمان ١١١٥١ الأردن
Info.daralbedayah@yahoo.com



دار المستقبل للنشر والتوزيع
عمان - وسط البلد - أول شارع الشابسوغ
تلفاكس: ٠٠٩٦٢٦٤٦٥٨٢٦٣
ص.ب ١٨٤٢٤٨ عمان ١١١١٨ الأردن
Info.daralmostaqbal@yahoo.com

ISBN : 978-9957-452-52-0 (ردمك)

شبهات في قضية تعدد الزوجات



المقدمة

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وصلاة وتسليماً على الرسول الأمين المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين ومن سار على هديهم واستنّ بسنّتهم إلى يوم الدين.

وبعد:

فلقد أساء خصوم الإسلام إلى ديننا أيّما إساءة، ولبسوا في ذلك ثياب الإصلاح والتقدّم والتمدّن، وتاجروا بقضايا هذه الأمة، زاعمين تحقيق الخير للناس وما هم في الحقيقة إلا لئام مفسدون: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[1].

ولقد تعدّدت أساليب هذا الإفساد، فبدأ بالاستعمار وانتهى اليوم بالغزو الثقافي، حين درسوا تراث هذه الأمة في الشرق، وسمّوا أنفسهم مستشرقين، على أنّ تسميتهم مفسدين هي أكثر دقة، وأكثر انطباقاً على واقعهم وأهدافهم.

ثم إنهم لم يكتفوا بذلك بل قد جعلوا لهم أتباعاً وأعواناً من الشرق الإسلامي يقومون بدور المستشرقين على أكمل وجه، وهؤلاء يستمدّون أفكارهم المريضة من

---

(١) البقرة: ١١، ١٢

جذور الفكر الغربي، فناسبهم بذلك اسم المستغربين، وقد كان خطر هؤلاء أضعاف خطر الاستشراق، لأنهم قد وجدوا لأفكارهم المتحرّرة آذاناً صاغية ودعماً منقطع النظير.

لم يكن مستغرباً أن نلحظ ذلك العدوان من أوروبا تجاه أمتنا وقضايانا، لكنّ الغريب فعلاً أن نشهد هذه الهجمة الشرسة من أبناء جِلدتنا ومن يتكلّمون بألسنتنا، ثم نراهم يعبثون بمبادئ الأمة الثابتة التي لا تقبل نقاشاً أو تنازلاً، حتى أصبح المنادون بسيادة القيم الإسلامية شواذّاً في أعين المجتمع، وكأنّ التاريخ يعيد نفسه: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝﴾[1]، هذا هو الهدف الحقيقي من هذه الدعوات التحررية، فإنهم قصدوا انهيار الأخلاق والقيم، وهدم كل تعاليم الإسلام في مجال الطهر والعفة والنقاء.

لقد كانت قضية المرأة وتحريرها وما زالت من أعظم المسائل الاجتماعية في العصور الحديثة وأكبر ما تفترق به الحضارة الغربية عن حضارة الإسلام، وحينها أدرك أعداء الإسلام وخصومه دور المرأة المسلمة في بناء الأجيال واستقرار المجتمع المسلم وارتقاء المعاني فيه، حاكتْ أيديهم الكيْد وأجادتْ المكْر، وظلّت تسعى لتحقيق هدفها والوصول إلى غايتها في هدم البيت المسلم حتى كان لهم بعض ما أرادوا.

وما كانت هذه الدعوات لتؤثر في الحياة الاجتماعية الإسلامية لولا هزيمتنا النفسية وتقليدنا للغرب إذِ المغلوبُ -كما يقول أهل الاجتماع- مولعٌ بتقليد غالبه. كان يمكن لأكثر هذه الأصوات والدعوات المنادية بتحرير المرأة أنْ تندثر في طيّات

(١) النمل: ٥٦



التاريخ لوْلا أنها وجدتْ أصداءً وآذاناً لها، تتلقّفها وتحتضنها وتُنفِق عليها بسخاء، لتُسْمِعَها الأصمَّ وتُشْهِدَها الأعمى.

الكلام في الشبهات التي يثيرها خصوم الإسلام في قضايا المرأة طويلٌ، والرد عليها وتفنيدها أطول، فحسْبُنا في هذا المقام الوقوف على قضية من هذه القضايا، وهي تعدّد الزوجات، نتناول فيه تلك الشبهات بخصوص هذا التشريع ونرد عليها بعون الله.

لا زال تعدّد الزوجات أول ما يُنتقد به الإسلام، وأشهر نواحي الضعف الذي يُلْتَاثُ به، في نظر الغربيين ومن ينظرون الأمورَ بمنظارهم من المسلمين، حتى إذا عَنَّ لبعضهم الاعتذار عن حُكم دينهم فيه، كانت غاية ما يتمسك به أنّ تعدّد الزوجات ليس بضروريّ في الإسلام، وأنّ جوازه محاطٌ بشروط كثيرة تجعله مستحيل الوقوع، ويفوته أنّ الاعتراف بجواز تعدد الزوجات -مبدئياً- ضروريّ للمسلم، وأنّ شروطه لا تجعله مستحيلاً وإلا كان تشريعه عبثاً ولغواً، وكان فعل الصحابة العاملين به مِن طلب المستحيل(١).

هذا البحث المتواضع محاولةٌ لوضع الأمور في نصابها، وإماطةِ اللثام عن الشبه التي يثيرها هؤلاء الخصوم ووضعها في ميزان الشرع والعقل والفطرة القويمة.

وأخيراً فهذا البحث جهدٌ بشري، فإن أصبتُ فمن الله وحده، وإن أخطأتُ فمن نفسي المقصّرة، وأسأل الله المغفرة والسداد والتوفيق.

---

(١) صبري: مصطفى - قولي في المرأة ص ١٢ دار ابن حزم- بيروت/ لبنان ط٣ ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

المبحث الأول

تعدُّد الزوجات في التاريخ والأديان

يُثار في هذا الصدد تساؤلٌ: هل تشريع تعدد الزوجات -من حيثُ مبدأُ إقراره- خاصٌ بالإسلام؟ هل أقرّته ديانةٌ من الديانات أو أمة من الأمم في التاريخ؟

في الحقيقة أن الإسلام لم يكن تشريعه لتعدد الزوجات بِدعَاً، ولم ينفرد بإقراره بفكرة التعدّد، ولعلّ هذا الأمر كان من أكبر الشُبَه في موضوع التعدد، لذا فقد آثرتُ أن أفردهُ في مبحث مستقل.

١ - في العصور البدائية:

ساد العالم القديم ظاهرة الاختلاط الجنسي، حيث لم تكن رابطة الزوجية قد عُرفت بعدُ في الحياة الإنسانية، ولكن ما إن اختفت هذه الظاهرة من حياة البشر إلا وعَرفت الإنسانية نوعين من العلاقات الجنسية:

أ- تعدد الزوجات: وقد كان للرجل حق الجمع بين عدة نساء في حياته الجنسية.

ب- تعدد الأزواج: بمعنى أن يكون للمرأة حق الجمع بين عدة أزواج في حياتها الجنسية.

وفي فترة لاحقة لهذا التطور التاريخي ساد تعدد الزوجات واضمحلّ أمامه تعدد الأزواج.

ويقرِّر مؤرخو القانون أن نظام الجمع بين الزوجات كان هو النظام المفضَّل في عصر معيّن من عصور التاريخ البدائي، في حين كان يعتبر زواج الرجل بامرأة واحدة -وهو ما يطلق عليه اصطلاحاً نظام [وحدة الزوجة]- بمثابة خطيئة يجب التكفير عنها، أي كان يُعدُّ الزواج بامرأة واحدة من قبيل الجرائم الدينية. وكان يستمدّ التجريمُ أساسه من قانون أو سنّة الطبيعة، بمعنى أن الزواج بامرأة واحدة كان يعدّ بمنزلة الاعتداء على حرية الأفراد(١).

٢- في القانون الروماني والجرماني:

حافظ القانون الروماني على نظام وحدة الزوجة ولكنه لم يمنع من اتخاذ الخليلات والعشيقات، في حين أنه اعتبر الجمع بين زوجتين جريمة عامّة، تهمّ المجتمع كلّه وفق [قانون جوليا]، لكنّ عقوبة هذه الجريمة كانت غير مقدّرة في أغلب الأحيان بل ترجع لتقدير القاضي. وقد كان أساس هذا التجريم اقتصادياً أو مادياً بحتاً:

حيث كان التعدد يكلّف الزوج مصاريف باهظة. وبمعنى آخر إنّ إقرار العشيقة لم يكن يكلّف الزوج مصاريف باهظة كما في الزواج!!

وكذلك الحال في القانون الجرماني، حيث كان مبدأ وحدة الزوجة هو المبدأ

---

(١) صدقي:عبد الرحيم - تعدد الزوجات بين الشريعة والقانون-مكتبة نهضة الشرق-جامعة القاهرة ١٩٨٦م. ص ١٣.

وانظر الزهراني: محمد مسفر- نظرات في تعدد الزوجات ص ٣٢ الطبعة الثانية ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

المهيمن على الزواج آنذاك، وعلى هذا الأساس كان يعاقب على الجمع بين زوجتين بشرط الدخول بالزوجة الثانية. ورغم تجريم الجمع بين الزوجتين، فإنّ التعدد قد عُرف كنظام مدني مباح وفقاً للتشريع القائم حينذاك لطبقة النبلاء كرمز لثرائهم(١).

٣- في العصر الفرعوني:

اعترف قدماء المصريين بنظام تعدد الزوجات خاصة في عهد رمسيس، وأول ما عُرف في أوساط الملوك الفراعنة، وامتدّ ليشمل الأثرياء والنبلاء، وكان يُعدُّ بالنسبة لهم رمزاً للثراء والسلطة، وكان القصد من الاعتراف به هو زيادة عدد أفراد الطبقة الحاكمة حتى يستطيعوا السيطرة على زمام الأمور لأملاكهم ولسلطاتهم.

ومع ذلك فقد كان التعدد دائماً هو الاستثناء من القاعدة، بمعنى أن القاعدة العامة أو الأصل كان مبدأ وحدة الزوجة. وقد انتشر هذا النظام في جميع الطبقات الاجتماعية حتى لدى الفلاحين بفعل التطور. وكان الدافع وراءه رغبة الفلاح المصري في زيادة عدد أفراد أسرته حتى يساعدوه في العمل الزراعي، أما في طبقة الكهنة فكانوا يرونه مخالفاً للدين والعدل، ولهذا لا نلحظه في هذه الطبقة(٢).

٤- التعدُّد في التوراة:

إذا رجعنا إلى نسخة التوراة الموجودة الآن وهي الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم من الكتاب المقدس، وجدنا أنها خاليةٌ من أيّ نص يحرم تعدد

---

(١) صدقي - تعدد الزوجات بين الشريعة والقانون ص ١٤-١٨.

الزوجات، بل في أسفار العهد القديم ما يدلّ على أنّ من الأنبياء مَنْ عدّد زوجاته بغير حصر(١)، فقد ورد مثلاً في سفر الملوك الإصحاح الحادي عشر أن سليمان عليه السلام- كان لديه سبعمائة من النساء السيدات، وثلاثمائة من السراري- والله أعلم بصحة ذلك-(٢).

والملاحَظ أيضاً أنّ التوراة لم تحدّد عدداً معيناً من الزوجات لا يجوز تجاوزه، إلاّ أنّ التلمود حدّد العدد بأربعة شرط أن يكون الزوج قادراً على إعالتهن أو وجود مسوّغ شرعي عند الزواج بأخرى مع ضرورة العدل بينهن. وقد تمسّك الربّانيون -وهي طائفة يهودية- بهذا التحديد وعللوا ذلك بأن يعقوب جمع بين أربع زوجات فحسب، أما القرّاؤون فلم يتقيدوا به، ولعلهم أخذوا بإطلاق التوراة(٣).

وفي العصور الوسطى ظهر من اليهود من يعارض هذا التعدد، وهو العالم اليهودي «جرشوم بن يهوه» حيث أفتى بتحريم تعدد الزوجات عند اليهود، حتى

(١) العطار: عبد الناصر توفيق- تعدد الزوجات من النواحي الدينية والاجتماعية والقانونية ص ٨٢ دار الشرق+مؤسسة الرسالة- جدة- بيروت ١٣٦٩هـ-١٩٧٦م.

(٢) جاء في مستدرك الحاكم ٢/ ٦٤٤ رواية تزيد هذا العدد المذكور جاء فيها أن سليمان كان له (ألف بيت من قوارير على الخشب منها ثلاث مائة صريحة وسبع مائة سرية)، سكت عنه الذهبي في التلخيص. وأما الروايات الواردة في الصحيحين فمصرحة أنه كان له ستون أو سبعون أو تسعون أو مائة ولا تزيد عن ذلك، انظر صحيح البخاري الأحاديث (٢٦٦٤)، (٣٢٤٢)، (٦٢٦٣)، (٧٠٣١)، وصحيح مسلم حديث رقم (١٦٥٤). وقد جمع ابن حجر في الفتح ٦/ ٤٦٠ بين هذه الأعداد، فانظره.

(٣) العطار- تعدد الزوجات ص ٨٣-٨٦، وانظر ريّان: أحمد علي- تعدد الزوجات ومعيار تحقيق العدالة بينهن ص ٩ دار الاعتصام ١٩٨٤.

يجنّب الجاليات اليهودية ما كانت تلاقيه من المسيحيين بسبب ذلك، ثم اتّفقت بعد ذلك كلمة الكهنة والقضاة على هذا التحريم، وإن كان قد ظل بعد ذلك منتشراً سرّاً وعلانية.

لكنّ ابن شمعون الذي عاش في القاهرة وكتب الأحكام الشرعية للإسرائيليين يقول في المادة ٥٥: [إذا كان الرجل في سَعة من العيش، ويقدر أن يعول، أو كان له مسوّغ شرعي جاز له أن يتزوج بأخرى].

وهكذا نجد أنّ موقف علماء اليهود من التعدد يتلوّن-كعادتهم- بحسب المجتمع الذي يعيشون فيه (١).

٥- التعدُّد في الإنجيل:

مِنْ أشهر ما ينادي به العالم المسيحي اليوم تحريم تعدد الزوجات، ويدَّعون أنّ لذلك سنداً في نصوص أناجيلهم. ونحن نتساءل: ما مدى دقة هذه الدعوة؟!

لقد جاءت المسيحية ولم تتوسع في التشريع الاجتماعي، لأنها نشأت في بيئة مكتظة بالشرائع، وذكرت هذه الديانة الجديدة شيئاً عن الزواج في ناحيته العباديّة، أو في ناحيته التي تتصل بالعالم الآخر، دون عالم الحياة الدنيا، ولم يرِدْ في نصوص أناجيلهم المتداولة نصٌّ صريحٌ يفيد منع تعدد الزوجات (٢)، وأكثر ما أورده آباء

---

(١) ريّان - تعدد الزوجات ص٩.

(٢) العقاد: عباس محمود- المرأة في القرآن ص ١١٤، دار الكتاب العربي- بيروت ط٣ ١٩٦٩م، وانظر ريّان - تعدد الزوجات ص٨.

الكنيسة وفقهاؤها من نصوصٍ في العهد الجديد، هي بعيدةٌ كل البعد عن موضوع التعدد وحكمِه، وقد ظهر التكلّف واضحاً في تفسيرها إلى حدٍّ بعيد(١).

ويبدو أن السّر في استمساك شعوب أوروبا حتى الآن بمبدأ وحدة الزوجة هو أن معظم الأوروبيين الوثنيين الذين انتشرت فيهم المسيحية بداءة كانت تقاليدهم وعاداتهم تحرّم تعدد الزوجات المعقود عليهنّ، وقد سار الأبناء بعد اعتناقهم المسيحية على ما سار عليه الآباء من قبل، وبالتالي فإن مبدأ وحدة الزوجة لم يكن تشريعاً مسيحياً متّبعاً، وإنما كان تقليداً متوارثاً مشى عليه الخلف تبعاً للسلف، بدليل أنه لم يدّعِ أحدٌ وجود نصٍّ قاطع من نصوص الأناجيل المعروفة يحرّم التعدد، وعلى كل حال، فقد أخذ ذلك التقليد المظهر الديني الذي ترفع رايته الكنيسة المسيحية اليوم(٢).

[باعترافاتهم هُم]:

هذه بعض الاعترافات والشواهد بألسنة المسيحيين أنفسهم على شرعية التعدد:

* يقول وستر مارك العالِم في تاريخ الزواج: إنّ تعدد الزوجات باعتراف الكنيسة بقي إلى القرن السابع عشر... وكان يتكرّر كثيراً في الحالات التي لا تحصيها الكنيسة والدولة(٣).

---

(١) انظر هذه الاستدلالات لهم في كتاب العطار- تعدد الزوجات ص ٨٦-٩٧. وانظر على سبيل المثال: إنجيل مرقص الإصحاح العاشر الفقرات ١٠-١٢، ومتّى إصحاح ١٩ رقم ١٨، ورسالة بولس الأولى لأهل كورنتس الإصحاح ٧ رقم١-٢.

(٢) ريّان- تعدد الزوجات ومعيار تحقق العدالة بينهن ص٨.

(٣) المرجع السابق ص٨. وانظر السباعي: مصطفى - المرأة بين الفقه والقانون ص٧٢ المكتبة العربية- حلب ط٢ ١٩٦٦م.

ويقول أيضا: ليس لأحدٍ الحق في أن يدّعي أن المسيحية هي التي فرضت وحدة الزوجة... هذا الإدعاء باطل يقيناً، بل لم يحدث حتى في العصور المسيحية الأولى أنّ مجمعاً كنسيّاً واحداً قد تصدى حقيقةً لمنع تعدد الزوجات(١).

* ناصَرَ «ميلانكتون» التعدد ووقف في وجه الحملة التي قامت من الكنيسة ضد تعدّد الزوجات وقال: إنه لا يجوز أن تفسَّر الكتب المقدسة بأقوال الآباء، بل يجب أن نفسِّر أقوال الآباء بالكتب المقدسة(٢).

* أعلن البابا جريجوار الثاني في تصريح شهير له صدر عام ٧٢٦م أنه يجوز للرجل إذا ما كانت زوجته مريضة أو غير قادرة على الوفاء بأعبائها الزوجية أن يتخذ زوجة ثانية له في حالات معينة لكي تخدم زوجته الأولى(٣).

* في سنة ١٦٥٠م بعد صلح وِسْتفاليا، وبعد أن تبيّن النقص في عدد الرجال من جرّاء حروب الثلاثين، أصدر مجلس الفرنكين بنورمبرج قراراً يجيز الرجل أن يجمع بين زوجتيه، بل ذهبت بعض الطوائف المسيحية إلى إيجاب تعدد الزوجات عام ١٥٣١م وهم اللامعمدانيون(٤).

---

(١) أسماء أبو بكر: زوجة واحدة هل تكفي؟! ص ٨٤ ، مكتبة التراث الإسلامي - القاهرة ط١ ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

(٢) المرجع السابق ص٨٤.

(٣) صدقي - تعدد الزوجات بين الشريعة والقانون ص١٩.

(٤) العقاد- المرأة في القرآن ص ١١٥-١١٦.

٦- التعدُّد في الجاهلية:

عرف المجتمع العربي قبل الإسلام التعدد بلا قيد ولا شرط بخصوص العدد والقدرة الإنفاقية والعدل. حتى يكاد التعدد يكون الأصل العام والمتّبع في العلاقات الزوجية في تلك الفترة.

ولّما جاء الإسلام أقرّ بهذا المبدأ مِن حيثُ جوازه، لكنه لم يتركه على حالـه التـي كان عليها من الفوضى وعدم التقيّد فيه بشروط، ومن أهمها شرط العدل والعدد:

ومما يروى في ذلك عن ابن عمر أن غيلان الثقفي قد أسلم وتحته عشر نسوة، فقال له النبي ﷺ: «اختر منهن»، وفي لفظ: «أمسك منهن أربعاً وفارق سائرهن»[1].

والأصل في مشروعية تعدد الزوجات حتى أربع، قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ ﴾[2].

وذكر الحافظ ابن حجر وجه الاستدلال بالآية فقال: إنها صيغة أمر تقتضي

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ج٢/ ١٣، ١٤، ٢٤، ٨٣، والترمذي في سننه في كتاب النكاح باب ما جاء في الرجل يسلم وعنده عشر نسوة (١١٢٨)، وابن ماجه في كتاب النكاح باب الرجل يسلم وعنده أكثر من أربع نسوة (١٩٥٣)، والدارقطني في سننه في كتاب النكاح ٣/ ١٨٩. وصحّحه الشيخ الألباني في صحيح سنن الترمذي - المكتب الإسلامي- بيروت ط١ ١٤٠٨هـ- ١٩٩٨م ج١/ ٣٢٩.

(٢) سورة النساء:٣

الطلب وأقل درجاته الندب فثبت الترغيب، وقال القرطبي: لا دلالة فيه لأن الآية سيقت لبيان ما يجوز الجمع بينه مِنْ أعداد النساء[1].

وخلاصة هذا المبحث: أنّ الإسلام لم يكن أوّل مَنْ شرّع تعدد الزوجات، بل كان موجوداً في كثيرٍ من الأمم القديمة، فقد عرَفَتْه بالإضافة إلى ما ذكرنا حضارةُ الإثينيين والصينيين والهنود والبابليين والآشوريين والمصريين. ولم يكن له عند أكثر هذه الأمم حدٌّ محدود. وقد سمحت شريعة "ليكي" الصينية بتعدد الزوجات إلى مائة وثلاثين امرأة، وكان عند أحد أباطرة الصين نحو ثلاثين ألف امرأة... [2]

***

---

(١) ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني _ فتح الباري شرح صحيح البخاري ج٩/ ١٣١ دار الفيحاء- دمشق- دار السلام- الرياض ط١ ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

(٢) السباعي:- المرأة بين الفقه والقانون ص٧١.

المبحث الثاني

شبهات خصوم الإسلام في نظام تعدُّد الزوجات

قبل البدء بعرضِ شبهات الخصوم في الموضوع، أشير إلى أنني قصرتُ الكلام في البحث على بيان هذه الشبهات والردّ عليها، أما باقي القضايا التي تتعلق بموضوع تعدّد الزوجات: كحُكْم التعدّد وضوابطِه وحِكَمِهِ... فلم أتعرض لها فإنّ ذلك بحثٌ يطول، فأرجو أن يُعْلم ذلك.

كثيرةٌ هي تلك الشبه التي ألقاها خصوم هذا الدين في موضوع التعدُّد، لكنها على كثرتها لا وزن لها ولا قيمة، لأن مثل هذه الشبه قد تُطيحُ بأفكار البشر، لكنّ الأمر هنا يتعلق بتشريع إلهي قويم حكيم، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومهما حاولوا النيلَ منه فعبثاً يفعلون، وما ينالون إلا ما ينال ناطحُ الصخرة يوماً ليوهنها.

الشبهة الأولى: العدلُ مستحيل التحقّق

صاحب هذه الشبه هو الشيخ محمد عبده، ومما يقول في هذا الصدد: لا ريب في جواز إبطال عادة تعدد الزوجات، لأنّ شرط التعدد هو التحقق من العدل... وهذا الشرط مفقود حتماً.

فيجوز للحاكم ولعالم الدين الحَجْرُ على الأزواج عموماً أن يتزوجوا غير واحدة

إلا لضرورة تثبت لدى القاضي...[١].

والشيخ محمد عبده -كعادته في الإصلاح- كان يضع القواعد والأسس، ثم يترك لتلاميذه تكملة البناء وتشكيله حسب ما يتراءى لهم[٢]، فها هو تلميذه قاسم أمين يقول معلّقاً على هذه الفكرة: [... وقد علّق الشارع وجوب الاكتفاء بواحدة على مجرد الخوف من عدم العدل، ثم صرّح بأنّ العدل غير مستطاع، فمن ذا الذي يمكنه أن لا يخاف عدم العدل، مع ما تقرّر مِن أنّ العدل غير مستطاع][٣].

وهذه الشبهة في الحقيقة تتعلق بآيتين من آيِ القرآن:

الأولى قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾[٤].

والثانية قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ ﴾[٥].

---

(١) عمارة: محمد - الإسلام والمرأة في رأي محمد عبده ص ١١، دار الرشاد- القاهرة ط٥ ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

(٢) فرج: السيد أحمد - المؤامرة على المرأة المسلمة ص ٩١ ، دار الوفاء - المنصورة ط١ ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

(٣) قاسم أمين - تحرير المرأة ص ١٥٨ المركز العربي للبحث والنشر - القاهرة ط٢ ١٩٨٤م.

(٤) سورة النساء ٣.

(٥) سورة النساء:١٢٩

فيقولون: إنّ العدل بين النساء أمر مستحيل، وعلى ذلك يجب الاقتصار على واحدة[1] ويقول الشيخ محمد عبده: فمن تأمّل الآيتين علم أنّ إباحة تعدد الزوجات في الإسلام أمرٌ مضيّق فيه أشدّ التضييق، كأنه ضرورة من الضرورات التي تباح لمحتاجها بشرط الثقة بإقامة العدل والأمن من الجور[2].

الرد على هذه الشبهة:

منشأ الخطأ في إيراد هذه الشبهة ظنُّ صاحبها أن حقيقة العدل المشروط في الآية الأولى هو عين حقيقة العدل الذي أُخبرنا باستحالته. والحق أنهما مختلفان:

فالعدل في الآية الأولى هو العدل في الأمور المحسوسة، والتي هي بمقدور المرء تحقيق العدل فيها، كالعدل في المسكن والمأكل والمشرب والمعاملة، وهذا العدل كما ترى مستطاع.

أما العدل في الآية الثانية فمعناه العدل المطلق في عِشرة النساء وحبهن والميل إليهن، وهو كما تراه عدلٌ غير مستطاع. وإنما علّق الشارع الحُكم بالعدل المستطاع فهو مكلّف بتحقيقه ولا يتعلّق التكليف بالعدل الآخر -المطلق- لأنه تكليف بالمستحيل وإلى ذلك المعنى أشار أكثر المفسرين[3].

---

(١) اسلامبولي: سامر- المرأة : مفاهيم ينبغي أن تصحح ص ٦٧- ٦٨، دار الأوائل- دمشق ط١ ١٩٩٩م.

(٢) عمارة- الإسلام والمرأة في رأي محمد عبده ص ١٢٤.

(٣) انظر القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد- الجامع لأحكام القرآن ج٥/ ٤٠٧ مؤسسة مناهل العرفان/ بيروت، وانظر أبا السعود: محمد بن محمد العمادي - إرشاد العقل السليم ج٢/ ٢٠٥، دار الكتب العلمية- بيروت ط١ ١٩٩٩م.

ليس معقولاً أن يبيح الله تعدد الزوجات ثم يعلّقه بشرط مستحيل لا يقدر الإنسان على فعله، ولو أراد تعالى أن يمنع التعدد لمنعه مباشرة وبلفظ واحد وفي آية واحدة، ثم إنه عز وجل قد نصّ في كتابه الحكيم على تحريم الجمع بين الأختين فقال: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾(١)، فما هو معنى تحريم الجمع بين الأختين إذا كان التعدد أصلاً محرّماً(٢). ثم إنه ﷺ قد عدّد زوجاته وكذلك فعل صحابة في حياته وعلى مسمعٍ وعلمٍ منه دون إنكار، فإن كان التعدد حراماً فكيف يقرّهم عليه؟!(٣).

الشبهة الثانية: التعدُّد يُنتج المساوئ

كثيرون هم أصحاب هذه الشبهة لكن من أبرزهم محمد عبده وتلميذه قاسم أمين(٤)، حيث ادّعيا أن نظام التعدد تنشأ عنه مساوئ لازمةٌ له. ولترتيب هذه المساوئ -بنظرهم- صنّفناها على النحو الآتي:

أ- مضار إنسانية: من حيث أن التعدد يُنقِص من كرامة المرأة ولا يقيم وزناً لمشاعرها، يقول قاسم أمين بهذا الصدد: [قد دلّ الاختبار التاريخي على أن هذه العادة تتبع حال المرأة في الهيئة الاجتماعية، فتكون في الأمة غالباً عندما تكون حال

---

(١) سورة النساء:٢٣

(٢) الزهراني- نظرات في تعدد الزوجات ص ٤٢.

(٣) السباعي- المرأة بين الفقه والقانون ص ١٠١.

(٤) عمارة- الإسلام والمرأة في رأي محمد عبده ص ٤١، وانظر قاسم أمين - تحرير المرأة ص ١٥٥.

المرأة فيها منحطة وتقلُّ أو تزول عندما تكون حالها مترقية... وبديهي أنّ في تعدد الزوجات احتقاراً شديداً للمرأة، لأنك لا تجد امرأة ترضى أن يشاركها في زوجها امرأة أخرى، كما أنك لا تجد رجلاً يقبل أن يشاركه غيره في محبة امرأته] (١).

ولو سألنا أي امرأة: هل تفضل أن ترى زوجها يتزوج من امرأة أخرى أو يخادنها فقط؟ لقالت: بل أفضل أن يخادن ألف امرأة غيري، لأنه قد يعود إلى صوابه فيعود إليّ وحدي!! (٢).

ب- مضار اجتماعية: فالأولاد من أمهّات مختلفات ينشؤون بين عواصف الشقاق والخصام، فلا يبلغ الأولاد إلا وقد صار كلٌّ منهم من أشد الأعداء إلى الآخر، ولا يمكن لأحد أن يربّي أمة فشا فيها تعدد الزوجات (٣).

ج- مضار اقتصادية: فالظروف الاقتصادية في عصرنا لا تسمح للرجل بأن يعدّد زوجاته، لأن هذا التعدد يفرض عليه أعباء مالية إضافية، لأنه المطالب بالإنفاق. كما يترتب على التعدد زيادة النسل في مواجهة قلة الموارد المالية (٤).

والرد العام على هذه الشبهة: أنّ ما ذكرتكم من مساوئ ليست من لوازم هذا التشريع، فقد أثبت التطبيق في زمن الرسالة وما بعده من الأزمنة المتلاحقة فاعلية

---

(١) قاسم أمين - تحرير المرأة ص ١٥٥-١٥٦

(٢) صبري: مصطفى - قولي في المرأة ص ١٣، دار ابن حزم- بيروت ط٣ ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

(٣) انظر المراجع السابقة.

(٤) العطار- تعدد الزوجات ص ٦٢.

هذا التشريع وأثره الحسن على مسيرة الأسرة والمجتمع المسلم، وما هذه المفاسد التي نشهدها اليوم إلا مفاسد عارضة بسبب تنكّب المسلمين عن تعاليم دينهم، حتى فشا فيهم الجهل وزال الوازع الديني من قلوبهم، فصاروا أتباعاً لأهوائهم، حتى اتخذوا التعدد وسيلة من وسائل اللذة وطريقاً من طرق المتعة، فهل يكون العلاج لأمثال هؤلاء الذين لم يدركوا حِكمة التشريع أنْ يُمنع التعدد ويُلغى التشريع؟!

لو صح هذا لقيل برفع التشريع الإسلامي كله، لتباعد معظم المسلمين عنه، لكنّ العلاج بتقريب المسلمين من شريعتهم جملةً وتفصيلاً ليفهموا أهداف التشريع ويعرفوا مالهم من حقوق وما عليهم من واجبات فيلتزمونها... إنّ هذه المفاسد كما ترى حصلت عندما لم تراعَ هذه الضوابط ولم تُحتَرم تلك القيود الشرعية[1].

وأما التفصيل في الرد: فأما كوْن التعدد يُنقص من كرامة المرأة، فغير صحيح! بل التعدد رحمة للنساء؛ ذلك لأن عدد الرجال الصالحين للزواج أقل بكثير من عدد النساء الصالحات للزواج، وهل يقول عاقل إنّ انتقال المرأة من العزوبية ومشقاتها واحتمالات الانزلاقات إلى حصانة الزوجية ضرر وشر؟![2]

ثم إن الشريعة لم تجعل نظام التعدد فرضاً لازماً على الرجل، ولا أوجب على المرأة وأهلها أن يقبلوا الزواج من رجلٍ ذي زوجة، فلولا أن المرأة وأهلها يرون في

---

(١) ريّان- تعدد الزوجات ومعيار تحقق العدالة بينهن ص ١٧ .

(٢) الزهراني- نظرات في تعدد الزوجات ص ٨٤.

وانظر حقي: خاشع - تعدد الزوجات أم تعدد العشيقات ص ٤٥، دار ابن حزم ببروت- ط١ ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

هذا الزواج منفعة ومصلحة محقّقة لما أقدموا عليه ولما قبلوا به إطلاقاً، فأين الضرر المزعوم، أضف إلى ذلك أن الشريعة ألزمت الزوج بالعدل بين زوجاته وحُسْن معاملتهن.

ولو فُرِض الضرر بعد ذلك وهو مستبعدٌ جداً إذا روعيت الشروط، فمِن حق الزوجة المتضررة أن ترفع أمرها إلى القضاء لينصفها(١).

وأما قول المرأة أنها تفضّل أن يخادن زوجها ألف امرأة على أن يتزوج عليها!! فماذا عسى أن يكون قَدَرُ امرأة تفضل زوجاً يخادن ألف امرأة على كونها الزوجة الأولى لرجل عفيف، وماذا يكون قيمة قول تلك المرأة الساقطة الحس والشعور بهذه الدرجة وقيمة تقديرها للرجال وهي لا تقدّر العفة قدرها، أفمثل هذه المرأة تُنصَّب حَكَماً في هذه المسألة الهامّة، وهل يمكن أن يقول أحدٌ من الرجال: لا أمنع امرأتي أن تخادن ألف رجل، فحسبي أنها قد تعود إليّ وتعود إلى صوابها؟!(٢).

إنّ الأكرم لها ولزوجها وللمرأة الأخرى أن يكون هذا اللقاء بعلمها ورضاها وأن يكون مشروعاً.

وأما الأضرار الاجتماعية المزعومة فمنشؤها كما ذكرتُ البعد عن المنهج الربّاني في التعدد، وأما نزاعات بني العلاّت -أي الأولاد من أمهات مختلفات- فإن هذا الاحتمال قائم في بني الأخياف -وهم أولاد المرأة من آباء مختلفين- بل إنه محتمل بين

---

(١) حفي - تعدد الزوجات أم تعدد العشيقات ص ٤٥-٤٦.

(٢) صبري- قولي في المرأة ص ١٤.

الأشقاء، فهل يقول عاقل بمنع الزواج من أجل هذا الخصام[١].

وأما المضار الاقتصادية: ككثرة النسل المؤدية إلى الفقر والبطالة، فمنطقٌ غير سليم ومرفوض؛ إذ لم تكن كثرة النسل يوماً مع حُسن التربية إلاّ من أعظم عوامل قوة الأمة وازدهار حياتها، ورافداً مهماً للجهاد في سبيل الله.

كما نجد أنّ الإكثار من النسل في البلاد الإسلامية مطلب شرعي هام، فهو يساعد الأمة على زيادة الإنتاج الزراعي والصناعي والتجاري، وبه يستغني المسلمون عن العمالة الأجنبية المخالفة لهم في المعتقد والعادات[٢].

وأما قلّة الموارد فراجعة إلى كسل الإنسان وخلوده إلى الراحة، لا أنّ هذه الموارد قليلةٌ في أصل وجودها، فإنّ الله سخر لنا ما في هذه الأرض جميعاً منه، ولا يبقى بعد ذلك إلا جهد استخراجها والاستفادة منها.

وكل ما قيل من مفاسد لا أثر ملموس له، فإنّ نسبة المعدّدين في المجتمعات لا تتجاوز ٢٪ في الغالب، فهل هذه النسبة الضئيلة تحتاج لكل هذه الضجة التي أُثيرتْ في الموضوع؟![٣]

ويرى أنصار تعدد الزوجات أن قضية التعدد ليست قضية اقتصادية، بل الأصل فيها أنها قضية اجتماعية ودينية لها جوانبها المالية. وعلى مستوى الجماعة فإن المشاكل

(١) العطار- تعدد الزوجات ص ٥٧-٦٠، وانظر صبري- قولي في المرأة ص١٥.

(٢) الزهراني- نظرات في تعدد الزوجات ص ٨٦.

(٣) انظر الشرقاوي: عثمان- الإسلام والحياة الزوجية دار الكاتب العربي- القاهرة- ص١٥٠.

المالية والاجتماعية التي تتعرض لها الأسرة عند تعدد الزوجات، أهون من المشاكل المالية والاجتماعية التي تتعرض لها الأسرة عندما يكون بها عانس أو مطلقة أو أرملة(١).

فرويْدكم يا أدْعياء التحرر !!

الشبهة الثالثة: التعدُّد وقضية المساواة

والتساؤل المطروح: كيف يباح للرجل أن يعدّد زوجاته، بينما يحرم على المرأة أن تعدّد أزواجها؟ أليس في ذلك إخلالٌ بالمساواة بين حقوق المرأة وحقوق الرجل؟!

وهم يدعّمون هذه الشبهة بقولهم إن نظام وحدة الزوجة هو الأساس الأول حين بدأت الخليقة؛ فالله قد خلق آدم وخلق من آدم حواء واحدة ولم يخلق غيرها، ثم زوّجها له، مما يؤكد نظريتهم في المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة(٢).

الرد: دعوى المساواة هذه تقتضي أحد أمرين: الاقتصار على نظام الزوجة الواحدة والزوج الواحد، أو الأخذ بنظام تعدد الزوجات مع نظام تعدد الأزواج، وعلى ذلك يكون تعدّد الزوجات مع تحريم تعدد الأزواج أمراً يخالف قضية المساواة مطلقاً(٣).

وإنما شاعت دعوى مساواة المرأة للرجل في العصر الحديث، تحت حماية بعض

---

(١) العطار- تعدد الزوجات ص ٦٢.

(٢) العطار- تعدد الزوجات ص ٧٩.

(٣) انظر المرجع السابق ص ١٣.

الرجال ومحاماتهم عنهنّ لحاجةٍ في أنفسهم، يحاولون قضاءها بالتقرّب إليهن، فلو فازتْ دعوى المساواة، فازتْ وهي مساواةٌ ممنوحةٌ غير حقيقية!![1].

والجواب على هذه الشبهة من وجوه:

الأول: أنّ من الظلم الكبير أن يُسَوَّى بين مختلفين، لأنّ المساواة بين مختلفين تؤدي إلى ظلم أحدهما حتماً.

وإنما تعتبر المساواة إذا كانتْ مظنة تحقيق العدل والمصلحة، فمتى لم تعد المساواة بين الطرفين تحقّق ذلك تجاوزناها إلى ما يحقق العدل والمصلحة، ولو كان طريق ذلك التفرقة والتمييز بينهما.

وعلى ذلك نقول هنا: إنّ المساواة بين الرجل والمرأة في نظام التعدّد لا تصح بل هي مستحيلة طبيعةً وخِلقةً: ذلك أنّ المرأة لها رحماً واحداً معدّاً للإنجاب، وقد تتأثر بما يقذف فيها من ماء الرجال بحسب المجرى العادي للأمور، بينما لم يكن للرجل رحمٌ منذ بدء الخليقة ولن يكون. وبالتالي تعارضت طبيعة المرأة مع نظام تعدد الأزواج؛ خشية أن يأتي الجنين من دماء متفرقة فيتعذّر تحديد المسؤول عنه على أساسٍ من الواقع ومن الحق، بينما صلحت طبيعة الرجل لأن يأتي زوجاتٍ متعددة، ليس لهن إلا هذا الزوج الواحد فيأتي الجنين من نطفته وحده، فيُسأل عن رعايته اجتماعياً وقانونياً ودينياً[2].

---

(١) صبري- قولي في المرأة ص٢٢

(٢) العطار- تعدد الزوجات ص ١٤. وانظر الزهراني- نظرات في تعدد الزوجات ص ٨١. والسباعي- المرأة بين الفقه والقانون ص ٨٩.

الثاني: أنّ فطرة المرأة وطبيعتها تنفر من تعدد الأزواج، حتى إنّ المرأة التي تتزوج عدة مرات زواجاً شرعياً تتعرض -أكثر من غيرها- للإصابة بسرطان الرحم، بينما لا يصاب الرجل بمثل ذلك إذا عدّد زوجاته الشرعيات[١].

كما أنّ تعدد الأزواج يمنع المرأة من أداء واجبات الزوجية بصورة متساوية وعادلة بين أزواجها، سواء كان ذلك في الواجبات المنزلية أو في العلاقات الجنسية، كيف لا وهي تحيض كل شهر أربعة أيام تستغني عن الرجل فيها، وإذا حملت تمكث تسعة أشهرٍ في معاناةٍ بدنيّة، لا تمكّنها من القيام بواجباتها نحو الرجال الذين تزوجوها. وحينئذٍ سيلجأ هؤلاء الرجال -بلا ريب- إلى الخليلات والعشيقات، أو يطلّقونها فتعيش حياةً غير مستقرة[٢].

ولا يخفى عن الفطنة، أنه لو أُبيح للزوجة أكثر من رجل واحد فقد تجعلها المرأة وسيلة لجمع المال بالمهور والنفقات، دون نظرٍ لاعتبار تكوين أسرة صالحة وحياة عائلية مستقرة[٣].

الثالث: أنّ المجتمع لا يجني من تعدّد الأزواج ثمرة طية ولا يستفيد منه شيئاً، على عكس تعدد الزوجات الذي يفتح فرص الزواج أمام كثيرٍ من العانسات والأرامل والمطلقات، ولو أُبيح للمرأة مثلاً أن تتزوج بأربعة رجال لزاد عدد العانسات زيادة عظمى!!

---

(١) العطار- تعدد الزوجات ص ١٤.

(٢) صبري- قولي في المرأة ص ٢٢ وانظر صدقي- تعدد الزوجات بين الشريعة والقانون ص٧٧.

(٣) صدقي- تعدد الزوجات بين الشريعة والقانون ص ٧٧.

إنّ المسؤولية الاجتماعية في نظام تعدد الزوجات مبنيةٌ على أساس رابطة الدم، وهي الرابطة الطبيعية المتينة، بينما يفتقر تعدد الأزواج إلى أساس طبيعي تبنى عليه الروابط الاجتماعية، لأنك بغير اقتصار المرأة على زوجٍ واحد لا تستطيع أن تعرف الأصل الطبيعي لك ولأبنائك، ومَن تجب عليه الرعاية الاجتماعية! ومن هنا ينشأ شرف المرأة وتحيط بطهارتها تِلكمُ القداسة الخاصة(١).

وعلينا ألا نغفل هنا عن حقيقة شرعية هي: أنّ تعدُّدَ الأزواج مُحَرَّمٌ بصريح نص القرآن في آية التعدد، لأنّ إباحة هذا التعدد مقصورٌ على الرجل.

أما استدلالهم على تحريم تعدد الزوجات بزواج آدم بحواء واحدة، فظاهر العوار؛ إذْ لو كان الله سبحانه وتعالى علوّا كبيراً قد علم أن آدم لم يكن في حاجة إلى أكثر من حواء واحدة، فإنه عز وجل لم يخلق بني آدم كآدم نفسه، ولم يخلق بنات حوّاء كحواء ذاتها.

ألا ترى أن كثيراً من الرجال من بني آدم يحتاجون فعلاً إلى أكثر من حواء واحدة ولا تكفيهم واحدة، ألا ترى كذلك أنّ مِنْ بنات حواء عقيماً أو ذات عيب جنسي أو مريضة مرضاً عضالاً.

ثمّ هل كانت ظروف حواء الأولى كحال من جئن بعدها، إذْ فيهنّ العوانس والأرامل والمطلقات. والصحيح أنّ خلق حواء واحدة لآدم كان لحكمة سامية: هي أن يكون البشر جميعاً أبناء رجل واحد وامرأة واحدة، فلا يَفضُل بعضهم بعضاً بنسبٍ أو حسب، فيزعم أنه ينتهي إلى أب أو إلى أم أشرف من أب أو أم الآخرين.

---

(١) العطار- تعدد الزوجات ص ١٥.

وبالتالي فلا تفاضل بينهم إلا بالإيمان والعمل الصالح والتقوى. قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[الحجرات ١٣].

إنّ الاستدلال بزواج حواء واحدة بآدم على حرمة التعدد هو استدلال خاطئ، لا يستهدف الحق بقدر ما يحرّكه الهوى أو تميله المصالح أو تتوهمه المراهقة الفكرية[(١)].

وهكذا كانت إباحة تعدد الزوجات للرجل وتحريم تعدد الأزواج على المرأة اعترافاً بالواقع ومعرفةً لسنة الله في الوجود، التي تشهد للرجل بصلاحيته لإتيان عدد من الزوجات بينما تشهد على المرأة بعدم صلاحيتها لنظام تعدد الأزواج... من هنا لم يكن عدلاً أن يباح للمرأة أنْ تعدّد أزواجها بحجة مساواتها مع الرجل، ولم يكن عدلاً أن يُحرم الرجل من صلاحيته أن يعدّد زوجاته بدعوى مساواته مع المرأة، وما أعطى الله تعالى الرجل هذه الصلاحية إلا لخير المرأة وفي سبيل إسعادها وزيادة فرصها في الزواج، كما كانت هذه الصلاحية لتحقيق مصالح الرجل، وحماية للمجتمع والأسرة من الانحرافات[(٢)].

الشبهة الرابعة: لماذا الأربع؟!

قد يماري بعض السفهاء فيقولون: ولماذا قيّدتم جواز التعدد حتى أربع زوجات؟ ألم يكن مقتضى تجويزكم لأصل التعدد إطلاقَهُ عن عدد؟!

---

(١) العطار- تعدد الزوجات ص ٧٩-٨٢.

(٢) المرجع السابق ص١٥-١٦.

وهنا نورد ردّ الأستاذ العقّاد على هذه الشبهة فيقول: «... ولا نحسب أنّ الأمر في تحديد عدد الزوجات بأربع يدعو إلى سؤالٍ من أحدٍ يمارس حدود التنصيص في الشريعة، فإن التحديد يقتضي الوقوف عند حدّ متعارف عليه. وما من سببٍ يقتضي أن يكون عدد الكتيبة في الجيش مائة ولا يكون تسعة وتسعين أو مائة وواحد، إلاّ جاز لهذا السبب نفسه أن يكون العدد أكثر من ذلك أو أقل بغير فارقٍ في التنفيذ. وما مِنْ سببٍ يقتضي أن تكون درجة النجاح في الامتحان خمسين ولا يقتضي كذلك أن يجعلها ستين أو أربعين، وإنما يجب الوقوف عند حدّ معلوم، ويقتضي ذلك أن يكون العدد أقرب إلى الغرض المطلوب. وهذه موازنةٌ ينتهي عندها الحد المعقول متى كان الواجب أنْ تنتهي إلى حدٍّ معقول»[1].

وأنا أقول: إنّ الله تعالى أعلمُ بما يصلح عباده وما يفسدهم، فشرع لهم من الأحكام ما يُصْلِحُ حالهم ويجنبهم المفاسد، وما نظام تعدد الزوجات بقيوده الشرعية إلاّ تشريع ربّاني حكيم لا يأتيه الباطل والزلل. ثمّ إنّ الشرع لم يُنكِرْ وجود تلك الشهوات في بني البشر، لكنّه في الوقت نفسه قد هذّبها وشرع من الأحكام بحيث لا تخرج البشرية عن دائرة الإنسانية إلى البهيمية، وقد كان التحديد بأربع زوجات لهذا السبب -والله أعلم-.

الشبهة الخامسة: فهمٌ خاطئٌ للنص

قد يستدل البعض على حرمة تعدد الزوجات، بقصة عليّ-رضي الله عنه- حين خطب بنت أبي جهل في حياة زوجه فاطمة رضي الله عنها.

---

(١) العقاد - المرأة في القرآن ص ١١٩.

فعن المسوّر بن مخرمة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: «إن بني هشام بن المغيرة استأذنوا في أن ينكحوا ابنتهم عليَّ بن أبي طالب، فلا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن، إلا أن يريد ابن أبي طالب أنْ يطلّق ابنتي وينكح ابنتهم، فإنما هي بضعةٌ مني يريبني ما أرابها، ويؤذيني ما آذاها»(١).

فإنه ﷺ استؤذن في أن يتزوج عليّ على ابنته وبمعنى آخر أنه أراد التعدد، فلم يأذن له إلا أن يطلقها، فكان دليلاً على حرمة التعدد.

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

الأول: أنّ ذلك محمولٌ على أن زواج علي رضي الله عنه يؤذي النبي ﷺ وإيذاؤه مُحَرَّمٌ بالاتفاق على كل حال وعلى كل وجه(٢).

الثاني: أنه محمول على رعاية خاطر فاطمة رضي الله عنها، وقيل هو امتثالٌ لأمر النبي ﷺ(٣).

الثالث: أنه قد ورد في روايةٍ لمسلم: «وإني لست أحرّم حلالاً ولا أُحِلّ حراماً، ولكنْ والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله مكاناً واحداً أبداً. قال فترك عليّ

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح باب ذب الرجل عن ابنته في الغيرة والإنصاف حديث (٥٢٣٠).

وأخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة باب فضائل فاطمة بنت النبي ﷺ حديث (٢٤٤٩).

(٢) النووي- شرح صحيح مسلم ٥/ ٢٤٣٤ وابن حجر- فتح الباري ٩/ ٤٠٨.

(٣) ابن حجر- فتح الباري ٩/ ٤٠٨

الخطبة»(١)، وهذا يحتمل أن حكمه بعدم الإذن لم يكن تشريعاً منه عليه الصلاة والسلام بل إنه أجاب كأب وليس كرسول(٢).

الرابع: رجّح الحافظ ابن حجر أنه لا يبعد أن يكون ذلك من خصائص النبي ﷺ في أن لا يُتزوَّجُ على بناته، كما يحتمل أن يكون ذلك خاصاً بفاطمة رضي الله عنها(٣).

* * *

(١) أخرج هذه الرواية مسلم في الموضع المذكور سابقاً.

(٢) ابن حجر- فتح الباري ٩/ ٤٠٨ وصدقي - تعدد الزوجات ص ٧٥.

(٣) ابن حجر- فتح الباري ٩/ ٤٠٨

المبحث الثالث

تعدُّد الزوجات في قوانين الأحوال العربية

في الحقيقة أنه قد تفاوتت القوانين العربية في الأخذ بتعدد الزوجات. ويمكن تقسيمها إلى ثلاث اتجاهات:

الاتجاه الأول: ويأخذ بتعدد الزوجات في نطاق أحكام الشريعة وقيوده الشرعية، وساد هذا الاتجاه في السعودية والكويت ودولة الإمارات العربية واليمن والسودان وليبيا والجزائر والأردن(١). وكذلك الحال بالنسبة للقانون اللبناني بالنسبة للمسلمين السنّين والجعفريين، لكن القانون الدرزي اللبناني الصادر عام ١٩٤٨ ينص في مادته العاشرة على منع التعدد وذلك لأنه يرى أن شرط العدل بين الزوجات متعذر(٢).

---

(١) العطار- تعدد الزوجات ص ٢٤٩. إلا أن قانون الأحوال الشخصية الأردني المعدّل لسنة ٢٠٠١ زاد على المادة (٦) ما يلي (يتوجب على القاضي قبل إجراء عقد الزواج المكرر التحقق مما يلي:

١- قدرة الزوج المالية على المهر والنفقة.

٢- إخبار الزوجة الثانية بأن الزوج متزوج بأخرى).

انظر الواضح في شرح قانون الأحوال الشخصية الأردني -عمر الأشقر ص٩٠.

(٢) إيمان سليمان- تعدد الزوجات وآثاره الاقتصادية والاجتماعية ص ٢١، رسالة جامعية - جامعة حلب/ كلية الاقتصاد ١٩٩٧م. =

وتجدر الإشارة إلى أنّ الحركة النسائية في الأردن قد طالبت بجملة تعديلات على قانون الأحوال الشخصية فيما يتعلق بتعدد الزوجات، منها ما هو مقبول بل هو موجود من قبل: كضرورة العدل والمساواة، ومنها ما هو غير مقبول كأن يشترط الإذن من القاضي وموافقة الزوجة الأولى على هذا الزواج، هذا إذا لم يكن المنع مشروطاً في العقد ابتداءً، أما إذا اشترط فالكلام فيه سعة[١].

الاتجاه الثاني: وهو يقيد تعدد الزوجات بالنسبة للمسلمين بقيود جديدة لم يجرِ العمل بها من قبل من الناحية القضائية. وانتشر هذا الاتجاه في المغرب ومصر وسوريا والعراق:

أ- القانون المغربي: يجوّزُ التعدد، لكنْ إذا خيف عدم العدل بين الزوجات لم يجز.

ويجوز للزوجة الأولى حق المطالبة بالأضرار التي لحقت بها من جرّاء هذا الزواج، ويحق لها طلب الطلاق إذا كان عقد الزواج نصّ على عدم التعدد، هذا بالإضافة إلى أن الزوجة الثانية يجب أن يكون لها علم بوجود الزوجة الأولى[٢].

والحق أن جعل شرط العدل شرطاً قضائياً لا يصح، لأن الخوف من عدم العدل

= وانظر الرافعي: مصطفى- نظام الأسرة عند المسلمين والمسيحيين ص ٧٧، دار الكتاب العالمي بيروت ١٩٩٠م.

(١) القدومي:رحاب- حقوق المرأة في قانون الأحوال الشخصية الأردني ص٢٠، نيسان ٢٠٠٠م.

(٢) إيمان سليمان- تعدد الزوجات وآثاره ص ٢٢، وانظر العطار- تعدد الزوجات ص ٢٥٧-٢٥٩.

أمرٌ عارض لا يقتضي بطلان العقد أو فساده، وقد يخاف الإنسان الظلم ولا يظلم، وقد يظلم ثم يتوب فيعدل فيعيش عيشة حلالاً.

ثم كيف يمكن للقاضي أن يتحقق من هذا الشرط؟ هل للعدل إمارات؟ هل يثبت بالشهادة أو اليمين؟ أو هو مما تجري فيه الفِراسة؟!... نحن مع أن يبقى شرط العدل شرطاً دينياً لا قانونياً يتوقف عليه السماح بالتعدد أو عدمه [١].

ب- **القانون السوري**: وهو ينص على ضرورة أخذ الإذن من القاضي قبل الزواج بثانية وذلك لمعرفة قدرة هذا الرجل على الإنفاق، وإذا ما اتضح العكس فإنه لا يجوز الزواج [٢].

والقانون السوري شبيه بالقانون المغربي من جهة تقييد التعدد بشرط ديني لا قضائي، وإن كانا يفترقان حقيقةً في أن شرط القدرة على الإنفاق يمكن التحقق منه بمعرفة دَخل ذلك الرجل ومعرفة قدرته المالية، ومع ذلك فإنه يبقى - والله أعلم - شرطاً دينياً لا قضائياً، فإنّ الصحابة لم يؤثر عنهم ولا عن رسول الله ﷺ أنهم تحرّوا في القدرة على الإنفاق. نعم يمكن أن يستأنس القاضي بالسؤال عن ذلك في ابتداء العقد، لا أن يكون شرطاً قانونياً.

جـ- **القانون العراقي**: وهو يمنع تعدد الزوجات إلا بإذن القاضي، لوجود مصلحة مشروعة، وعاقب القانون بالحبس مدة لا تزيد على عام أو دفع غرامة مالية

---

(١) انظر العطار- تعدد الزوجات ص٢٥٨، والسباعي- المرأة بين الفقه والقانون ص ١١٤.

(٢) إيمان سليمان- تعدد الزوجات وآثاره ص٢١

لا تزيد على مائة دينار أو بالعقوبتين معاً، كلّ من عدّد زوجاته دون تطبيق الشروط التي نص عليها[(١)].

والملاحظ أن مثل هذه الشروط كسابقها لا تصلح شروطاً قانونية، ثم إنّ تقييد التعدد بوجود مبرِّر أمر فيه نظر، إذ النصوص مطلقة عن مثل ذلك، كما أنه يسهل التحايل في ذلك، وما أكثر ما يمكن للمرء أن يأتي به من مبرّرات كاذبة.

الاتجاه الثالث: وهو يحرّم تعدد الزوجات على المسلمين، ويجعل ممارسته جريمة يعاقب عليها. وانفرد بهذا الاتجاه القانون التونسي[(٢)].

فقد جاء في المادة ١٨ من قانون الأحوال الشخصية: تعدد الزوجات ممنوع، وكل من تزوج وهو في حالته الزوجية وقبل فك عصمة الزواج السابق يعاقب بالسجن لمدة عام وبغرامة مالية قدرها (٢٤٠) ألف فرنك أو بإحدى العقوبتين[(٣)].

لقد كان القانون التونسي هو الأكثر تشدّداً في موضوع التعدد، وتحريمه للتعدد أمرٌ غير مقبول ولا دليل عليه من كتاب ولا سنة... وما هو إلا خطوة خطيرة في تحرير المرأة الذي يدّعونه. ولقد كان موقف القانون اليهودي في الأحوال الشخصية أخفّ وطأة من القانون التونسي!! فبالرغم من منعه للتعدد إلا أنه قد سمح بالزواج لوجود سبب شرعي كعقم المرأة، وبشرط العدل والقدرة على إعالة الزوجتين معاً مع ضرورة أن تسمح له زوجته الأولى بذلك[(٤)].

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢، والعطار- تعدد الزوجات ص ٢٦٠-٢٦١

(٢) العطار- تعدد الزوجات ص ٢٥٠

(٣) إيمان سليمان- تعدد الزوجات وآثاره ص٢٣، و العطار- تعدد الزوجات ص ٢٦٢.

(٤) إيمان سليمان- تعدد الزوجات وآثاره ص٢٣.

ولن نكون مبالغين إذا قلنا أنّ القانون اليهودي أقرب بكثير إلى الشرع من قانون الأحوال التونسي في هذه القضية. ونحن نتساءل عن وجود هذه الظاهرة بهذا الشكل السافر في بلاد الإسلام، مَن المسؤول عنها، وكيف يسمح بصياغتها على شكل قانون مُلزِم؟!



المبحث الرابع

كلمات إنصاف لهذا التشريع مِنْ خصوم الإسلام

لعل مِنْ أعظم ما يجعل الحجة للشيء أن يشهدَ الخصوم له بحُسْنِه، لذا آثرتُ أن أنقل هنا بعضاً من كلام أعداء هذا الدين، يعترفون بصحة هذا التشريع ونجاحه، وكما يقال: الفضل ما شهدتْ به الأعداء، وكم وددتُ أن يسمع دعاة تحرر المرأة ممن هم من أبناء جلدتنا هذه العبارات، لعلهم يخجلون من أنفسهم.

١- يقول جوستاف لوبون(١): إنّ مبدأ تعدد الزوجات الشرقي نظام طيّب يرفع مستوى الأمم الأخلاقي، ويزيد الأسرة ارتباطاً ويمنح المرأة احتراماً وسعادة، لا ترى مثلهما في أوروبا.

٢- يقول شوبنهور(٢): وقد أصاب الشرقي في تعدد الزوجات لأنه تحتّمه الطبيعة وتبرره، والعجب أنّ الأوروبيين يستنكرونه نظرياً على حين أنهم يتبعونه عملياً، فما أحسب أن بينهم من ينفذ مبدأ الزوجة الواحدة على الوجه الصحيح.

---

(١) لوبون: جوستاف- حضارة العرب- ترجمة محمد عادل زعيتر ص ٤٢٥. دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٤هـ-١٩٤٥م.

(٢) الملاح: نديم- حقوق المرأة المسلمة ص ٢٦ المطبعة الحديثة- عمان ط٢ ١٣٨٨هـ-١٩٦٩م.



٣- نشرت جريدة الرأي الأردنية في عددها الصادر بتاريخ ٢٦/ ١٠/ ٢٠٠٠ العدد ١١٠٠٥ صفحة ٤٠ ما نصّه:

مجلس النواب الروسي يرفض تعدد الزوجات

موسكو-(أ ف ب)- رفض مجلس النواب الروسي (الدوما) أمس اقتراحاً تقدم به النائب القومي المتشدد فلاديمير جيرينوفسكي بتشريع تعدد الزوجات ليسمح للرجال بالزواج من أربع نساء كحد أقصى.

ورفض الاقتراح ٢٧١ نائباً فيما أيده ٢١ ووجدت ورقتان بيضاوان.

وقبل عملية التصويت قال جيرينوفسكي الذي يشغل أيضاً منصب نائب رئيس البرلمان، أن المسألة تتعلق بتشريع علاقات قائمة في الوقت الحالي، ويرى أن مثل هذا القانون سيسمح بحل المشاكل الديموغرافية والاجتماعية في البلد لأن هناك ((عشرون مليون امرأة روسية لا يمكنها الزواج في الوقت الحالي)).

وأعلن جيرينوفسكي ((فلتذهب العشيقات اللواتي لا يتمتعن بوضع قانوني إلى دوائر سجلات النفوس ويتسلمن شهادة: امنحوا النساء هذه الفرصة الأخيرة)).

وانتقدت رئيسة لجنة النساء والعائلة الشيوعية سفيتلانا غورياتشيفا بشدة هذا الاقتراح الذي يهدف برأيها إلى خلق ((حريم للمحظيين)).

وكان النائب جيرينوفسكي اقترح مؤخراً ان يتم في غضون الأعوام العشرة المقبلة إلغاء حق الإجهاض للنساء اللواتي لم يبلغن ال ٤٣ من العمر ويتمتعن بصحة جيدة بغية زيادة عدد أفراد الشعب الروسي.

٤- يقول أحد أدباء أوروبا[1]: إنّ للمسلمين أن يفترشوا النساء إلى أربع، وللغربيين الذين يعدّون أنفسهم أرقى مدنية منهم أن يفترشوا إلى ما شاؤوا من العدد.

٥- صرّح نيبويه أستاذ القانون الدولي الخاص في جامعة باريس بأنه معجب بنظام تعدد الزوجات في الإسلام بشروطه المقننة في القرآن ونتائجه الحميدة، لاسيما لجهة كونه يعتبر الأولاد جميعهم شرعيين، لأن فريقاً كبيراً من الأوروبيين يعملون جاهدين كي يلحقوا بهم أبناءهم غير الشرعيين دون جدوى[2].

٦- التجربة الألمانية[3]: في عام ١٩٤٨ أوصى مؤتمر الشباب العالمي الذي كان منعقداً آنذاك في ميونيخ بألمانيا بإباحة تعدد الزوجات؛ حلاً لمشكلة تكاثر النساء وقلة الرجال بعد الحرب العالمية الثانية. وتقول إحدى الألمانيات في هذا الصدد: إنّ حل مشكلة المرأة الألمانية هو في إباحة تعدد الزوجات. وتقول أستاذة ألمانية: إنني أفضل أن أكون زوجة مع عشر نساء لرجل ناجح، على أن أكون الزوجة الوحيدة لرجل فاشل تافه، ليس هذا رأيي وحدي، بل رأي كل نساء ألمانيا.

٧- جاء على لسان امرأة غربية ما نصه: ((لقد كثرت الشاردات من بناتنا وعمّ البلاء وقلّ الباحثون عن أسباب ذلك، وإذ كنت امرأة أراني أنظر إلى هاتيك البنات وقلبي يتقطع شفقة عليهن وحزناً. وماذا عسى يفيدهن بثي وحزني وتوجعي

---

(١) صبري- مصطفى- قولي في المرأة ص ١٦.

(٢) الرافعي- نظام الأسرة ص ٦٦.

(٣) ريّان- تعدد الزوجات ص ١٩.

وتفجعي وإن شاركني فيه الناس جميعاً... والدواء الكافل للشفاء هو أن يباح للرجل التزوج بأكثر من واحدة، وبهذه الواسطة يزول البلاء لا محالة وتصبح بناتنا ربّات بيوت، فالبلاء كل البلاء في إجبار الرجل الأوروبي على الاكتفاء بامرأة واحدة...))[١].

ونحن نتساءل في النهاية: هل المرأة المسلمة في حاجة للتحرير أم أنّ المرأة الغربية هي في حاجة ماسة إلى أن تتحرر بالفعل، وكيف نسمع بعد ذلك ممن يدعي الإسلام أنّ المرأة الشرقية يجب أن تتخذ من المرأة الغربية قِبلة لها؟! أقول: لقد عفا الزمن على مثل هذه الدعاوي ويجب أن لا يبقى لها وجود في الواقع والتطبيق، كما أنّه يجب أن لا نبقى في موقع الدفاع عن أحكامنا وأفكارنا فحسب، بل لابد من التوجه بالنقد إلى حضارة الغرب فهي التي تستحق الطعن والنقد.



(١) رضا: محمد رشيد- حقوق النساء في الإسلام ص ٤٣-٤٤، دار المنار ١٣٥١هـ.

الخاتمة

وضمّنتها أهم النتائج والتوصيات:

النتائـج:

١- تعرّض نظام تعدد الزوجات للشبه من مصدريْن:

مصدرٍ جاهلٍ بالشرع وأحكامه، ومصدرٍ خبيث لئيم يتمثل في الاستعمار والاستشراق وأعوانهم في الشرق، خاصة في مصر: أمثال قاسم أمين ورفاعة الطهطاوي وفهمي مرقص وجاراهم كذلك محمد عبده.

٢- لم يكن الإسلام أول تشريع جاء بنظام تعدد الزوجات، فقد عرفته الأمم السابقة والأديان التي سبقت الإسلام.

٣- تركّزت شبه الخصوم على التعدد فيما يلي:

(العدل مستحيل التحقق)، (التعدد ينتج كثيراً من المساوئ)، (التعدد يناقض مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة)، (لا مسوّغ لتقييد التعدد بأربع زوجات)، (قصة علي بن أبي طالب وعدم إذن النبي ﷺ في الزواج على ابنته فاطمة رضي الله عنها).

٤- تباينت مواقف قوانين الدول العربية في الأحوال الشخصية في قضية التعدد، ولها ثلاث اتجاهات في ذلك:

أ- **موقف معتدل**: يوافق أحكام الشرع في التعدد وهو مطبق في أغلب الدول العربية ولله الحمد.

ب- **موقف وسط**: حيث وضع بعض القيود والشروط والجزاءات على نظام التعدد.

جـ- **موقف متشدد**: منع التعدد مطلقاً ورتّب عليها -أي هذه الجريمة- جزاءات وغرامات مالية ضخمة، وتتمثل في القانون التونسي.

٥- هناك الكثير من النداءات من الحركات النسائية تطالب بتعديل قوانين الأحوال الشخصية للدول العربية على أن بعض هذه المطالبات مشروع دون البعض الآخر.

٦- نقلنا الكثير من تصريحات الغربيين تؤكّد محاسن نظام التعدد الإسلامي، وهي تُعدّ ضربة قاسية لكل من ينادي بتقليد الغرب والمرأة الغربية في كل شؤوننا.

التوصيات:

١- لا بدّ من تكثيف الجهود للرد على أي شبهة يمكن أن يوردها أيّ خصم لنظام التعدد، بإعداد الدراسات وتكثيف العمل في هذا الجانب ودعمه ما أمكن.

٢- لا بد كذلك أنْ نتحول عن السلك التقليدي في مواجهة هذه الشبه وعدم الاكتفاء بردّها -على الرغم من أهمية ذلك-، بل لابد أن نتوجّه إلى مواقع الهجوم على حضارة الغرب والمطالبة بتحرير المرأة هناك؛ إذ هي من تحتاج إلى التحرير لا المرأة المسلمة.

وأحمد الله في نهاية هذا البحث على إعانته لي، وأسأله المغفرة من كل زلل.

قائمة المراجع

١ - القرآن الكريم.

٢ - آل مبارك: أحمد بن عبد العزيز - العلاقة بين الزوجين في ضوء الإسلام. دار القلم - دمشق ط١ ١٣٩٧هـ-١٩٩٧م.

٣ - أحمد بن حنبل - المسند. دار سحنون - اسطنبول ط٢ ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

٤ - إسلامبولي: سامر - المرأة: مفاهيم ينبغي أن تصحح. دار الأوائل - دمشق ط١ ١٩٩٩م.

٥ - أسماء أبو بكر: زوجة واحدة هل تكفي؟ مكتبة التراث - القاهرة ط١ ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

٦ - الأشقر: عمر سليمان - الواضح في شرح قانون الأحوال الشخصية الأردني. دار النفائس -عمان-الأردن. ط٤ ١٤٢٩هـ-٢٠٠٧م.

٧ - الألباني: محمد ناصر الدين - صحيح سنن الترمذي. المكتب الإسلامي - بيروت ط١ ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٨ - إيمان سليمان - تعدد الزوجات وآثاره الاقتصادية والاجتماعية. رسالة ماجستير - جامعة حلب - كلية الاقتصاد ١٩٩٧م.

٩- الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة- الجامع الصحيح. دار الكتب العلمية بيروت ط١ ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

١٠- ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني- فتح الباري شرح صحيح البخاري. دار السلام- الرياض- دار الفيحاء- دمشق ط١ ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

١١- حقي: خاشع- تعدد الزوجات أم تعدد العشيقات. دار ابن حزم - بيروت ط١ ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

١٢- الرافعي: مصطفى- نظام الأسرة عند المسلمين والمسيحيين. دار الكتاب العالمي- بيروت ط١ ١٩٩٠م.

١٣- رضا: محمد رشيد- حقوق النساء في الإسلام. دار المنار ١٣٥١هـ.

١٤- ريّان: أحمد علي- تعدد الزوجات ومعيار تحقيق العدالة بينهن. دار الاعتصام ١٩٨٤م.

١٥- الزهراني: محمد سفر- نظرات في تعدد الزوجات. ط٢ ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

١٦- السباعي: مصطفى- المرأة بين الفقه والقانون. المكتبة العربية - حلب ط٢ ١٩٦٦م.

١٧- السعود: محمد بن محمد العمادي- إرشاد العقل السليم. دار الكتب العلمية- بيروت ط١ ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

١٨- الشرقاوي: عثمان- الإسلام والحياة الزوجية. دار الكاتب العربي- القاهرة.

١٩- شلبي: محمد مصطفى- أحكام الأسرة في الإسلام. الدار الجامعية- بيروت ط٤ ١٤٠٣هـ-١٩٩٣م.

٢٠- صبري: مصطفى- قولي في المرأة. دار ابن حزم بيروت ط٣ ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

٢١- صدقي: عبد الرحيم- تعدد الزوجات بين الشريعة والقانون. مكتبة نهضة الشرق- جامعة القاهرة ١٩٨٦م.

٢٢- العطار: عبد الناصر توفيق- تعدد الزوجات من النواحي الدينية. دار الشروق- بيروت ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م.

٢٣- العقاد: عباس محمود- المرأة في القرآن. دار الكتاب العربي- بيروت ط٣ ١٩٦٩م.

٢٤- عمارة: محمد- الإسلام والمرأة في رأي محمد عبده. دار الرشاد- القاهرة ط٥ ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

٢٥- عمارة: محمد- الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي. المؤسسة العربية- بيروت ط١ ١٩٧٣م.

٢٦- فرج: السيد أحمد- المؤامرة على المرأة المسلمة. دار الوفاء- المنصورة ط١ ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

٢٧- قاسم أمين- تحرير المرأة. المركز العربي للبحث والنشر- القاهرة ط٢ ١٩٨٤م.

٢٨- القرطبي: محمد بن أحمد- الجامع لأحكام القرآن. مؤسسة مناهل العرفان- بيروت.

٢٩- لوبون: جوستاف- حضارة العرب. ترجمة محمد عادل زعيتر. دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٤هـ-١٩٤٥م.

٣٠- الملاح: نديم- حقوق المرأة المسلمة. المطبعة الحديثة- عمان ط٢ ١٣٨٨هـ-١٩٦٩م.

٣١- النووي: محيي الدين يحيى بن شرف- صحيح مسلم بشرح النووي. دار العلوم الإنسانية- دمشق ط١ ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.



إنجيل برنابا في الميزان



المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً. وصلوات ربي وسلامُه على النبي المختار المبعوث رحمة للعالمين محمد النبي الأمين وعلى آله وصحبه الغرّ الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فقد قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة:١١٦-١١٧].

نعم هكذا كانت حقيقة دعوة المسيح، دعوة التوحيد الخالص له عز وجل، لا كما يدّعي النصارى اليوم. وهم في ذلك فرق: فمن قائلٍ أن المسيح هو الله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة:٧٢]، إلى آخر قائلٍ بأنه ابنه ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ﴾ [الأنعام:١٠١]، إلى ثالث يقول أنه ثالث ثلاثة ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ ﴾ [المائدة:٧٣].

لقد كان من بين الأناجيل ما ينفي ذلك ويثبت بشرية المسيح، ليس ذلك فحسب

بل أثبت إنجيل برنابا -الذي هو موضوع البحث- حقائق مدهشة كثيرة، تتعلق بالتوحيد وبالمسيح وبإبراهيم عليهما السلام، ومن أهمها التبشير بالنبي محمد ﷺ كمصلح وهادٍ للأنام.

إنّ القارئ لهذا الإنجيل ولو على وجهٍ من السرعة، يدرك تماماً، لماذا حرّم مرسوم (جلاسيوس) عام ٤٩٢م تداول هذا الإنجيل، ولماذا لا تعترف به الكنيسة اليوم، كما أنه يدرك مدى التقارب بينه وبين الحقائق القرآنية رغم وجود بعد المخالفات والتعارضات فيه.

لهذا كله جاء هذا البحث المتواضع، يلقي الضوء على جانب حياة برنابا، وإنجيله المنسوب إليه، سائلاً الله التوفيق والسداد.

وقد سمّيت هذا البحث (إنجيل برنابا في الميزان) إذ إننا نناقش هذه المسألة على نحو معتدل من النقد والاتزان فيه دون تعصب، بل كان المنطق لغةَ هذا البحث.

وقسمت بحثي هذا إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة.

أشرت في المقدمة لأهمية هذه القضية وسبب اختيار هذا البحث.

وأما المبحث الأول: فقد تكلّمت فيه عن حياة برنابا من حيث اسمه ومعنى هذا الاسم، ثم كان الحديث عن مولده وصفاته الحميدة التي كان يتمتع بها وعلاقته ببولس التي اشتملت على الجولات التبشيرية في أنحاء البلاد، ومدى إيجابية هذه الجولات في دخول الناس في الإيمان... ثم كان الافتراق بينهما لأمر يتعلق بالتوحيد والشريعة... ثم تكلمت عن وفاته، والروايات التي ذكرت قصة موته ومكان ضريحه.

وأما المبحث الثاني ففيه فروعٌ ستة:

الأول: تكلمت فيه عن مراحل ظهور إنجيل برنابا.

الثاني: في ترجمته ووصفه وثبوته وأدلة ذلك.

الثالث: في شبهة أن أصل هذا الكتاب «الإنجيل» عربي، وردّها.

الرابع: في بعض الحقائق التي أشار لها الإنجيل كالتوحيد وبشرية المسيح ونفي الصلب ونبوة المسيح والتثليث... والتبشير بالنبي ﷺ، باللفظ الصريح لا بالإشارة.

الخامس: وتحدثت فيه عن فروق هذا الإنجيل عن الأناجيل الأربعة المعروفة عند النصارى اليوم.

السادس: وتكلمت فيه عن أوجه الافتراق بين القرآن الكريم وإنجيل برنابا.

وأما الخاتمة: فحوت نتائج البحث التي توصلت لها بعد دراسة هذا الموضوع.

وفي النهاية، فإني أطلب السداد والمغفرة من الله، وأحمده على إعانته لي في إنهاء هذا البحث المتواضع، على أنّ الجهد جهدٌ بشري، فإن أخطأت فمن نفسي المقصّرة... وإن أصبت فمن الله.

مصطفى عايد إسعيفان

المبحث الأول

حياة برنابا

اسمه:

(كان اسمه الأصلي جوسي أو جوزيف ثم لقب برنابا، وهي كلمة سريانية معناها ابن النبوة وابن الإنذار وابن التعزية)[١]، (سمي بذلك لرقة طبعه وحلمه وبشاشته)[٢].

(وغلب عليه هذا الاسم ويبدو أنهم دعوه برنابا لمقدرته الفذة على تعزية الآخرين وتشجيعهم أكثر مما على الوعظ والتعليم)[٣].

مولده وصفاته:

(ولد برنابا في قبرص من أبوين يهوديين)[٤].

(وأما صفاته فلا شك أن برنابا يعدّ أحد الرجال العظام في الكنيسة الأولى فقد

---

(١) دائرة المعارف- المعلم بطرس البستاني. مؤسسة مطبوعاتي اسماعيليان طهران- ناصر خسرو، سنة ١٨٨٢م ٥/ ٣٦٢.

(٢) الدرر النفيسة في مختصر تاريخ الكنيسة- إغناطيوس أفرام الأول برهوم. مطبعة السلامة- حمص ١٩٤٠م ١/ ٧٧.

(٣) دائرة المعارف الكتابية- مجموعة من الدكاترة القساوسة. دار الثقافة- القاهرة. الطبعة الأولى ١٩٩٠م. ٢/ ١٤٢.

(٤) دائرة المعارف- المعلم بطرس البستاني ٥/ ٣٦٢.

كان نداً للرسول بولس ورفيقاً له في الخدمة... ولقد كان برنابا رجلاً لطيف المعشر سموح النفس ذا شهامة وصاحب بصيرة نفّاذة، استطاعت أن تستشف الإمكانات الروحية العظيمة التي عند الآخرين. لم يكن به شيء من ضيق الفكر وسوء الظن أو الأنانية، بل كان متسع الفكر ورحب القلب مما أهّله لكي يكون قادراً على تشجيع الآخرين الذين كاد يصيبهم الإحباط، كما كان أنيساً للمنفردين معيناً للمعوزين، وما قد يراه البعض فيه من ضعف إنما جاء من عواطفه الرقيقة واستعداده لحسن الظن)[1].

علاقته بشاول -بولس-:

رافق برنابا بولس في جولاته التبشيرية لبلدان كثيرة منها:

أنطاكية، وطرسوس، وسلوقية... وغيرها، يدعون أهلها للإيمان فاستجابوا لهما. وتذكر بعض الكتب جزءاً من أسفارهما.

(... ثم أرسلوه أولاً إلى مدينة أنطاكية، فلما قدم على المؤمنين ورأى نعمة الله فرح ووعظهم كلهم أن يثبتوا بالرب بعزم القلب، لأنه كان رجلاً صالحاً ممتلئاً من روح القدس والإيمان. فانضم إلى الرب على يده جمّ غفير، فتوجه إلى طرسوس وجاء بصديقه بولس إلى أنطاكية، وتردّدا معاً سنة كاملة في كنيستها وعلّما جمعاً غفيراً... فأرسلهما روح القدس إلى هداية الأمم الوثنية، فتوجها إلى سلوقية وطافا جزيرة قبرص من سلامينة إلى بافوس، ومنها أقلعا إلى برجة في بمغيلية وصارا إلى أنطاكية بيسيدية وأيقونية ولُسترة ودربة، وأنشآ الكنائس وأقاما القسوس... وانقلبا إلى

---

(١) دائرة المعارف الكتابية- مجموعة من الدكاترة القساوسة ٢/ ١٤٣.

أنطاكية مع رسولي المجمع الرسولي، وصرفا هناك زماناً ثم افترقا وانطلق القديس إلى قبرص وأتم تبشير أهلها)(١).

(وتشهد لنا رسالة أعمال الرسل أن برنابا كان من الرسل الذين أخلصوا للدعوة إلى المسيحية؛ لدرجة أنه باع كل ما يملك! وألقى بثمنه بين أيدي الرسل يتصرفون به في سبيل نشر الدعوة وينفقونه في حاجات الجميع، وأنه هو الذي شهد لبولس بالإيمان، وإن الكنيسة أرسلتهما مبشرين بالمسيحية في قبرص، بعد أن أرسلت برنابا وحده على أنطاكية، وأن برنابا كان رجلاً صالحاً ممتلئاً من الروح...)(٢).

وأما سبب افتراقهما؛ فتروي الكتب سبباً يختلف عن الذي يذكره إنجيل برنابا، وملخّص السبب الأول (... ولمّا حدث جدال في أنطاكية من جهة ختان المرتدين من الأمم، أرسل بولس وبرنابا لكي يطرحا المسألة أمام المشايخ في أورشليم، فما قرّراهُ حمل المشايخ على الحكم بأن الختان غير ضروري، ثم قصد بولس وبرنابا أن يسافرا معاً سفرة أخرى لأجل التبشير، فطلب برنابا أن يأخذ معه ابن أخته مرقس فلم يرتضِ بولس لسبب غير معين، ولكن قد ذكر فيما بعد أن مرقس كان رفيقاً خالصاً لبطرس، فربما كان قد اتفق معه دون بولس في مسألة الختان. والحاصل أن الجدال بين بولس وبرنابا من جهة مرقس كان شديداً حتى أدى إلى انفصالهما، فذهب برنابا ومرقس إلى قبرص، وأما بولس فأخذ معه سيلا وسافر طائفاً سورية وكيليكية)(٣).

---

(١) الدرر النفيسة في مختصر تاريخ الكنيسة- أغناطيوس أفرام الأول برهوم ١/ ٧٧-٧٩.

(٢) محمد رسول الله ﷺ هكذا بشرت الأناجيل- بشرى زخاري ميخائيل. عالم الكتب- القاهرة ص ١٠٨.

(٣) دائرة المعارف- المعلم بطرس البستاني ٥/ ٣٦٣.

وهكذا نرى أن سبب انفصالهما في هذه الرواية يتعلق بأمر تشريعي وهو قضية الختان، ورفض بولس لمرافقة مرقس لهما.

ونتعرض الآن للسبب المذكور في إنجيل برنابا، وهو من الأهمية بمكان حتى يضعه في مقدمة إنجيله، ويقول: (أيها الأعزاء إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنبيّه يسوع المسيح برحمة عظيمة، للتعليم والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى، مبشرين بتعليم شديد الكفر، داعين المسيح ابن الله، ورافضين الختان الذي أمر به الله دائماً، مجوّزين كل لحم نجس، الذين ضلّ في عدادهم أيضاً بولس الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى وهو السبب الذي لأجله أسطّر ذلك الحق الذي رأيته وسمعته أثناء معاشرتي ليسوع، لكي تخلصوا ولا يضلكم الشيطان فتهلكوا في دينونة الله، وعليه فاحذروا كل أحد يبشركم بتعليم جديد مضادٌ لما أكتبه لتخلصوا خلاصاً أبدياً)(١).

والسبب هنا والذي يصرّح به الإنجيل لا يقتصر على مسألة الختان فقط، بل إنه يشير إلى ما هو أعمق من ذلك وأخطر، إذ إنه متعلق بتوحيد الله الذي يحاول الشياطين - أمثال بولس - أن يضلّلوا العباد عنه ويحرفونهم عن الحق، كما أنه يتعلق بتعطيل أحكام من الشرع -كما هو واضح من النص-.

وهذا السبب فيما أرى أكثر منطقية من السبب الأول؛ لأنه يتعلق بأمرٍ خطير وأدعى إلى المفارقة بسببه، إذ إن قضية التوحيد والعقيدة أهم ما يمكن أن يذود عنه المرء، ويفارق الأحباب لأجله.

---

(١) إنجيل برنابا - المقدمة ٢-٩.

وفاتــه:

وردت في وفاة برنابا روايات متعددة لا يمكن الجزم بأحدها، وإن كان بعضها يستحق النظر أكثر من البعض الآخر. نذكر منها:

(وأقام فيها -أي قبرص- أسقفاً ومبشراً حتى رجمه اليهود في مدينة سلامينة سنة ٦٢، وقال بعضهم أنه توفي ودفن في جزيرة ساموس، والرواية الأولى أصح بدليل وجود ضريحه الشريف في جزيرة قبرص سنة ٤٨٨)(١).

(ويوجد روايات كثيرة عنه، ولكن لا يمكن إرجاع واحدة منها إلى ما قبل القرن السادس، ومن جملتها أنه حاول التبشير في مجمع سلاميس فجروه إلى الخارج ورجموه حتى مات، وأنه حاول جماعة إحراق جسمه فحبط مسعاهم، وأن مرقس خلّص الجسد ودفنه في مغارة، فثار اضطهاد تفرق به المسيحيون ففقد مكان دفنه، وبعد ذلك بمدة أربعة قرون حاول بعض الأراتقة أن يعزلوا سقف سلاميس الأرثوذكسي فظهر برنابا ثلاث مرات للأسقف في الرؤيا وأخبره بالمكان حيث يمكنه أن يجد فيه جثته مع نسخة من إنجيل متّى موضوعة عليها. وبعد البحث وجدت الجثة مع الكتاب ويُقال -ولكن من دون سند راهن-: أن برنابا كان أول أسقف لميلان... والكنيسة الكاثوليكية تقوم باحتفال عيده في ١١ حزيران، وتدّعي كنيسة تولون بأن جسده عنده، ويدعي ثماني أو تسع كنائس أُخَر بأن رأسه موجود فيها)(٢).

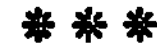
(وبعد، فهذا هو برنابا قدّيسٌ من الرعيل الأول للمسيحية، وركنٌ من الأركان

---

(١) الدرر النفيسة في مختصر تاريخ الكنيسة - إغناطيوس أفرام الأول برهوم ج/ ١-٧٩.

(٢) دائرة المعارف - بطرس البستاني ٥/ ٣٦٣.

التي قامت عليها الدعوى للمسيحية الأولى، وقد وجد إنجيلٌ باسمه يدل على أنه كان من تلاميذ السيد المسيح، ولو أن بعض الكتّاب المسيحيين لا يعدّوه من هؤلاء التلاميذ، وإنما هو من الرسل الذين يبلغون مكانة التلاميذ في هذا الدين بعد المسيح، ومهما يكن من شيء في هذا الأمر وهو كونه من التلاميذ أو ليس منهم فإن برنابا حجة في المسيحية، وهو من الملهمين، فإن صحّت نسبة هذا الإنجيل إليه كان ما يشمله حجة على المسيحيين يدعوهم إلى أن يوازنوا بين ما جاء فيه، وما جاء في غيره من الكتب الأخرى، ويؤخذ بما هو أقرب إلى التصور والتصديق وأصح سنداً وأقرب بالمسيحية الأولى رحماً)[1].



(١) محمد رسول الله ﷺ هكذا بشرت الأناجيل- بشرى ميخائيل ص ١١٠

المبحث الثاني

إنجيل برنابا

وفيه فروع:

الفرع الأول

مجمل تاريخ إنجيل برنابا في مراحل ظهوره(١)

أ- يتفق المؤرخون على أن النسخة الأولى التي عثر عليها من هذا الإنجيل كانت باللغة الإيطالية، وهي التي عثر عليها الراهب «كريمر» سنة ١٧٠٩م.

ب- انتقلت هذه النسخة من يد راهب مسيحي إلى البلاط الملكي في «فينا» فكانت النسخة في رحاب دولة مسيحية عام ١٧٣٨م.

ج- النسخة الإسبانية التي وجدت كانت في ظلال دولة مسيحية متعصّبة، قامت على أنقاض دولة إسلامية منهارة.

د- هذه النسخة ترجمها من الإسبانية إلى الإنجليزية مستشرقٌ مسيحي، والمستشرقون المسيحيون مشهورون بعاطفتهم تجاه مسيحيتهم.

---

(١) نظرات في إنجيل برنابا المبشر بنبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم- محمد علي قطب. مكتبة القرآن، بولاق- القاهرة ص ٥٤. وانظر مقدمة مترجم إنجيل برنابا ص ١٨-١٩.

هـ- ثم جاء دور الراهب «فرامينو»، فبحث عنها لأنه وجد لها ذِكرا فيها كتبه «أريانوس» يستنكر مخترعاته -أي بولس-، ويستند في كتاباته إلى إنجيل برنابا.

و- ووصل البحث بالراهب «فرامينو» إلى أن وجد نسخة من هذا الإنجيل في مكتبة البابا «سكُتس» - الخامس - فطالعها ثم أسلم.



الفرع الثاني: ترجمته - وصفه - ثبوته

أولاً: ترجمته:

(تُرجم هذا الإنجيل عن الأصل الإيطالي إلى اللغة الإنجليزية، وقام بهذا الجهد المحقق «لونسدال راغ» نائب مطران الكنيسة الإنكليزية في فنيس، وساعدته زوجته المدققة «لورا راغ» وطبع هذا الإنجيل المترجم للإنكليزية مطبعة كلارندن في (Oxford)[١].

ثم قام الدكتور خليل سعادة بترجمته إلى العربية عن الترجمة الإنكليزية بعد إذن الزوجين «راغ» وذلك في القاهرة سنة ١٩٠٨م، وقام بنشره مشكوراً صاحب دار المنار الشيخ محمد رشيد رضا. ولا ننسى هنا جهود المحقق سيف الله فاضل في التعليق والمراجعة والمقارنة.

ثانياً: وصفه:

ونحن هنا نصف النسخة الإيطالية وننقل ما أورده الدكتور سعادة:

(والنسخة الوحيدة المعروفة الآن في العالم التي نقل عنها هذا الإنجيل إنما هي نسخة إيطالية في مكتبة بلاط فينا، وهي تعدّ من أنفس الذخائر والآثار التاريخية فيها، تقع في مائتين وخمس وعشرين صحيفة سميكةً مجلّدة بصحيفتين متينتين من المقوّى، يغطيها جلدان لونهما أدكن ضارب إلى الصفرة النحاسية، ويحيط بهما على

(١) مقدمة مترجم إنجيل برنابا ص ٣٠.

الحواقي الأربع خطان مذهّبان، وفي مركز الجلد نقشٌ بارز عطل من التذهيب، تحيط به حافة مزدوجة من نقوش ذهبية متباينة الأشكال، يسميها الغربيون بالطراز العربي؟! ويستدلّون من مجمل التجليد المنوّه عنه أنه طراز شرقي!!)[1].

وسنبحث هذا الإدعاء -أنه عربي الأصل- في مكان متقدم من هذا البحث.

ثالثاً: ثبوته:

ونحن نذكر هنا ما استدل به الدكتور محمد الحاج بعد قراءة متفحصة للقضية فيقول[2]: ... أود أن أذكر الأدلة التي تؤيد نسبة هذا الإنجيل إلى برنابا واستحالة أن يكون واضعه مسلماً أو أنه وضع بعد بعثة نبيّنا محمد ﷺ، ومن هذه الأدلة:

١ - قضية الخلاف بين بولس وبرنابا حول البدع والانحرافات التي أدخلها بولس للمسيحية، هذه القضية جعلت برنابا يقوم بهذا العمل، الذي يضم حياة المسيح وأعماله وعقيدته وتعاليمه، حتى يحذروا من المبتدعين والمنحرفين.

٢ - لو كان كما يدّعي هو -أي الدكتور سعادة- وغيره من النصارى أن هذا الإنجيل وضع بعد الإسلام، لوجدت العلماء المسلمين قد استشهدوا به في كتبهم في الرد على النصارى، ولوجدته في فهارس الكتب العربية، ولو وجد في بيئة إسلامية لاهتم به العلماء كثيراً ولما ضاع واندثر ذكره.

---

(١) المرجع السابق ص ١٧.

(٢) الحاج: محمد- النصرانية من التوحيد إلى التثليث. دار القلم- دمشق+ الدار الشامية- بيروت الطبعة الأولى ١٤١٣هـ-١٩٩٢م. ص ٢٩٥-٢٩٨.

٣- وجود هذا الإنجيل في بيئة نصرانية خالصة، والتتبع التاريخي له يؤكد ذلك، ثم كيف لإنجيل كاذب أن يعيش في مكتبة البابا ثم على البرنس (أيوجين) ثم إلى مكتبة البلاط الملكي في فيينّا، وينال هذه العناية من تجليد وتذهيب وكل هذه أوساط مسيحية.

٤- مرسوم «جلاسيوس» سنة ٤٩٢م الذي يذكره المؤرّخون والمتضمن قائمة الكتب الممنوعة ومنها إنجيل برنابا، ولم نجد أدلة على نفي هذا المرسوم.

٥- موافقة بعض موضوعات هذا الإنجيل للقرآن الكريم لا تدل على أنه من وضع مسلم، فـ(برنابا) عاش مع السيد المسيح عليه السلام وسمع منه هذه الموافقة، ولا غرابة أن تكون معروفة عند نبي الله عيسى عليه السلام.

٦- قضية الهوامش العربية التي استدل منها البعض على نسبة هذا الإنجيل لأصل عربي لا تدل بحال على أن واضع هذا الإنجيل مسلم؛ لأننا مع هذه الهوامش أمام عدة احتمالات:

٧- منها أن يكون الراهب «فراموينو» هو الذي وضع هذه الهوامش، سيما وأن الرواية تقول إنّ هذا الراهب اعتنق الإسلام بعد قراءته لهذا الإنجيل فوضع هذه الهوامش بعد ذلك، ومن هنا كان بعض العبارات سقيماً وبعضها صحيحاً، فهو ليس بعربي، والأعاجم يكتبون أحياناً عبارات صحيحة بليغة وأحياناً تأتي سقيمة.

(ويحتمل أن يكون بعض القسَس قد تعلّم العربية؛ ليتبين هل فيها مصادر لهذا الإنجيل يمكن إرجاعه إليها، ويرجع هذا الاحتمال لتسمية الفصول سوراً تشبيهاً له

بالقرآن، ولا يوجد مسلم عربي ولا أعجمي يطلق لفظ السور على غير سور القرآن، أو يقول «سبحان الله» لأنها مما يحفظه كل مسلم من أذكار دينه)[١].

٨- هذا الإنجيل لا يمكن أن يكون واضعه مسلماً؛ لأن فيه مخالفات للقرآن في بعض نصوصه: مثل تصريحه أن الله لم يرسل رسولاً للجن، وأن الذين يحرسون النار شياطين، كما أنه يعتبر كلام المسيح للناس في المهد كان من قبل الوحي، وأن الله كلّم الحواريين، (وتعبيرات وألفاظ إنجيل برنابا تشابه من كل وجه التعبيرات والألفاظ الكتابية؛ فلا يمكن لمسلم أن يقبل أن يقال: إن الله روح، فالروح عبد من عباد الله)[٢].

أما التصريح بذكر اسم نبيّنا (محمد) ﷺ فهو أمر ليس بمستغرب مطلقاً؛ فإن الرسل جميعهم بشروا بنبوته ﷺ والأناجيل كلها بشرت به. وقد نقل الشيخ(محمد بيرم) عن رحالة إنجليزي أنه رأى في دار الكتب البابوية في الفاتيكان نسخة من الإنجيل مكتوبة بالقلم الحميدي قبل بعثة النبي ﷺ، وفيها يقول المسيح عليه السلام: (ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد)[٣].

وذلك موافق لنص القرآن بالحرف، كما في الآية ٦ من سورة الصف.

٩- إذا كانت الكنيسة ترفض هذا الإنجيل لانقطاع سنده، فإن الأناجيل الأربعة

---

(١) مقدمة ناشر إنجيل برنابا- محمد رشيد رضا ص ٣٤.

(٢) إنجيل برنابا- ترجمة الدكتور خليل سعادة- تحقيق سيف الله فاضل. دار القلم- الكويت. الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م. ص١٥.

(٣) مقدمة الناشر - محمد رشيد رضا ص ٣٥.

التي يعترفون بها منقطعة السند، والباحثون لم يتوصلوا إلى معلومات ثابتة عن زمن كتابتها، أو عن اللغة التي كتبت بها، فإنجيل برنابا من هذه الناحية لا يختلف عن الأناجيل الأخرى.

* * *

الفرع الثالث: شبهة أن أصل هذا الإنجيل عربيّ، وردّها

لا نزيد ههنا كثيراً عما قد أورده الدكتور الحاج من أدلة ذلك في النقطة السابقة. والحق أن هذا الإنجيل قد تضاربت فيه الآراء كثيراً للوقف على حقيقته، فمن قائلٍ أنه عربي، إلى قائل أنه تركي، وآخر أنه أندلسي... وحاولوا تلمّس الحقيقة من خلال دراسة الورق والخط والكتابة وطبيعة التجليد والنقوش والهوامش، ومقارنته مع القرآن الكريم والكتاب المقدس، ثم زعموا بعد ذلك أن أصل هذا الإنجيل عربي من خلال الدراسة السابقة لأوصافه... ولعلّ هذا الرأي هو الذي تبنّاه د. سعادة، لا اعتماداً على ما سبق ولكن بادّعاء أن كاتبه كان يهودياً أندلسياً اعتنق الإسلام بعد تنصره واطلاعه على أناجيل النصارى. وهذا لا يُسلّم له وما استدل به لا يعدو حد الاحتمال الذي يسقط به الاستدلال. ثم إن القول بأن هذا الإنجيل منسوب إلى برنابا يحلُّ الإشكال؛ إذ أنه أحد تلاميذ المسيح -عليه السلام- وقد سمع منه من أخبار العهد القديم الشيء الكثير، وهذا يفسر الاطلاع الواسع لكاتب هذا الإنجيل على الأناجيل الأخرى.

ثم إن الدكتور سعادة بعد ذلك يستدل لرأيه بما ورد في الإنجيل من وجوب الختان فيقول:

(ومما يؤيّد هذا المذهب ما ورد في هذا الإنجيل من وجوب الختان)[1]، ومثل هذا الوجوب لا يمكن أن يصدر عن نصراني -حسب رأيه- والحق أن هذا لا يُسلّم له؛

---

(١) مقدمة المترجم- د.خليل سعادة ص ٢٤.

فإنّ الختان جزء من الشريعة التوراتية التي جاء المسيح عليه السلام مصدقاً بها كما في التعبير القرآني، أي أنها الشريعة التي يطبقونها ويأمرون الناس بتطبيقها أيضاً.

ومسألة الختان بعد ذلك هي من الأسباب التي كتب برنابا لأجلها هذا الإنجيل كما يصرّح في مقدمه إنجيله، وهي من القضايا التي اختلف فيها مع بولس، فقد ألغى بولس الختان ضمن التنازلات التي قدمها للوثنيين الذين قبلوا اعتناق النصرانية.

وأنصح بالرجوع للفرع السابق ولِما أوردته من أدلة تؤكد نفي الأصل العربي لهذا الإنجيل.

الفرع الرابع: بعض الحقائق التي اثبتها هذا الإنجيل(١):

لعلّنا بدراسة هذه الحقائق نجيب عن سؤال مهم ألا وهو:

لماذا تحرّم الكنيسة والمجامع المسيحية والبابا "غلاسيوس" الأول منذ القرن الخامس الميلادي هذا الإنجيل، حيث أصدر أمراً يعدّد فيه أسماء الكتب المنهي عن مطالعتها وفي عدادها هذا الإنجيل؟!

نعم سنورد بعض هذه الحقائق مدعّمة بنصوصٍ من إنجيل برنابا، ثم إن القارئ بعد ذلك لن يجد للاستغراب داعياً في مدى خطورة هذا الإنجيل على الكنيسة، إلى الحد الذي يصل إلى منعه، وإيراد الشبه الكثيرة عليه.

---

(١) انظر بعض هذه الحقائق في كتاب: نظرات في إنجيل برنابا - محمد علي قطب ص ٥٧. وكتاب العقيدة الإسلامية وأسسها- لعبد الرحمن حبنكة الميداني. دار القلم- دمشق- بيروت. الطبعة السابعة ١٤١٥هـ-١٩٩٤م. ص ٤٩٥.

الحقيقة الأولى: التوحيد لله

وإنجيل برنابا يشير دائماً إلى هذه الحقيقة المهمّة في مواضع كثيرة جداً، إذ إنها أهم قضية دينية. ونذكر هنا بعض النصوص التي تؤكد هذه الحقيقة.

في الفصل التاسع والعشرين، في خطاب الله تعالى لإبراهيم عليه السلام يقول:

(فتكلم الله قائلاً: أنا الله أحد ولا إله غيري أضرب وأشفي، أميت وأحي، أنزل الجحيم وأخرج منه، ولا يقدر أحد أن ينقذ نفسه من يدي)[(١)].

وفي الفصل السابع عشر ما نصه: (أجاب يسوع: يا فيلبس إن الله صلاح بدونه لا صلاح، إن الله موجود بدونه لا وجود، إن الله حياة بدونها لا أحياء، هو عظيم حتى أنه يملأ الجميع وهو في كل مكان، هو وحده لا ندّ له، لا بداية ولا نهاية له، ولكنه جعل لكل شيء نهاية، لا أب ولا أم له، لا أبناء ولا إخوة ولا عشراء له...)[(٢)].

وفي الفصل التسعين: (الإيمان خاتم يختم الله به مختاريه، وهو خاتم أعطاه لرسوله الذي أخذ كل مختار الإيمان على يديه، فالإيمان واحد كما أن الله واحد)[(٣)].

وفي الفصل الخامس والتسعين: (قال يسوع: إنه مكتوب هناك أن إلهنا في كل مكان، وأن لا إله سواه، الذي يضرب ويشفي، ويفعل كل ما يريد)[(٤)].

---

(١) إنجيل برنابا ٢٩/ (٣٠-٣٦) وانظر أيضاً بعض النصوص الذي يفيد هذه الحقيقة: فصل ١٢٦/ (١٧)- فصل ١٥٨(١٦-١٨) - فصل ٢٠٦(٥).

(٢) إنجيل برنابا ١٧/ (٤-١١).

(٣) إنجيل برنابا ٩٠/ (٣).

(٤) إنجيل برنابا ٩٥/ (١٥)

الحقيقة الثانية: إثبات بشرية المسيح عليه السلام ونفي ألوهيته

لقد كان ينكر المسيح بشدة على أولئك الذين يدّعون ألوهيته، لأنه بريء من هذا كلّه. ففي الفصل الثاني والخمسين يؤكد ذلك: (الحق أقول لكم متكلماً من القلب: إني أقشعر لأن العالم سيدعوني إلهاً، وعليّ أن أقدم لأجل هذا حساباً لعَمر الله الذي نفسي واقفة في حضرته إني رجل فانٍ كسائر الناس)(١).

وفي الفصل الثالث والتسعين: (حينئذٍ رفع يسوع يده إيماء للصمت، وقال: إنكم لقد ضللتم ضلالاً عظيماً أيها الإسرائيليون؛ لأنكم دعوتموني إلهكم وأنا إنسان... أشهد أمام السماء وأشهد كل شيء على الأرض إني بريء من كل ما قد قلتم، لأني إنسان مولود من امرأة فانية بشرية وعرضة لحكم الله كسائر البشر)(٢).

وفي الفصل السادس بعد المائتين: لأن كل ما كتب في كتاب موسى صحيح كل الصحة؛ فإن الله خالقنا أحد وأنا عبد الله وأرغب في خدمة رسول الله الذي تسمونه مسياً)(٣).

الحقيقة الثالثة: نفي بنوّة المسيح

وهو ينفي أن يكون المسيح ابن الله بنفس الشدة التي ينفي بها ألوهيته، وقد أكّد ذلك في مقدمة إنجيله، بل يعتبر هذه المسألة من أسباب كتابته لهذا الإنجيل فيقول:

---

(١) إنجيل برنابا ٥٢/ (١٠-١٢). وانظر في هذه الحقيقة: فصل ٢٢٠/ (١٩) + فصل ٩٦/ (٩) + فصل ٩٧/ (٢-٣) + فصل ١٣٨/ (١١).

(٢) إنجيل برنابا ٩٣/ (١-١٠)

(٣) إنجيل برنابا ٢٠٦/ (٥).

(أيها الأعزاء: إنّ الله العظيم العجيب قد افتقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنبيّه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم، والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى مبشرين بتعليم شديد الكفر، داعين المسيح ابن الله ورافضين الختان...)(1).

وفي الفصل السبعين يظهر المسيح غضبه الشديد ونهره لمن يدعوه بابن الله:

(أجاب يسوع: وما قولكم أنت فيّ؟ أجاب بطرس: إنك المسيح ابن الله. فغضب حينئذٍ يسوع وانتهره بغضب قائلاً: اذهب وانصرف عني لأنك أنت الشيطان وتحاول أن تسيء إليّ. ثم هدّد الأحد عشر قائلاً: ويلٌ لكم إذا صدقتم هذا لأني ظفرت بلعنة كبيرة من الله على كل من يصدّق هذا. ثم قال يسوع: إذا كان إلهنا لم يرد أن يظهر نفسه لموسى عبده، ولا لإيليا الذي أحبه كثيراً ولا لنبي ما، أتظنون أن الله يظهر نفسه لهذا الجيل الفاقد الإيمان! بل ألا تعلمون أن الله قد خلق بكلمة واحدة كل شيء من العدم، وأن منشأ البشر جميعهم من كتلة طين فكيف إذاً يكون الله شبيهاً بالإنسان، وبل للذين يدعون الشيطان يخدعهم)(2).

الحقيقة الرابعة: نفي التثليث

ينفي المسيح عليه السلام التثليث ويعلن أنه بريء من كل ذلك، يصرّح بذلك الفصل الثالث والتسعين: (فاقترب يسوع من الكاهن باحترام، ولكنّ هذا كان يريد

---

(١) انظر مقدمة إنجيل برنابا/ (٢-٦) وانظر فصل ٩٦/ (٩-١٣)- فصل ١٣٨/ (١١)- وفصل ٩٧/ (٢-٣).

(٢) إنجيل برنابا ٧٠/ (٤-٧) (١٢-١٥).

أن يسجد ليسوع فصرخ يسوع: ما أنت فاعل يا كاهن الله الحي؟! لا تخطئ إلى الله. أجاب الكاهن: إن اليهودية اضطربت بسبب الشعب، إلى أن آتى إلى هنا مع الوالي الروماني والملك هيرودس، فنرجوك أن ترضى بإزالة الفتنة التي ثارت بسببك، لأن فريقاً يقول إنك الله، وآخر أنك ابن الله، ويقول فريق إنك نبي... ولمّا قال يسوع هذا عاد فقال: إني أشهد أمام السماء وأشهد كل ساكن على الأرض أني بريء من كل ما قال الناس عني من أني أعظم البشر؛ لأني بشر مولود من امرأة وعرضة لحكم الله أعيش كسائر البشر، عرضة للشقاء العام، لعَمرالله الذي تقف نفسي بحضرته إنك أيها الكاهن لقد أخطأت خطيئة عظيمة بالقول الذي قلته، ليلطف الله بهذه المدينة المقدسة؛ حتى لا تحلّ بها نقمة عظيمة لهذه الخطيئة)[1].

الحقيقة الخامسة: نفي الصلب

وإنجيل برنابا لا يقول بالصلب خلافاً لكل الأناجيل المعروفة، بل إنه يجهّل القائل بذلك، ويقرّر أن الذي صلب إنما هو يهوذا الأسخريوطي الخائن.

يؤكد ذلك الفصل الثاني عشر بعد المائة: (لأن الله سيصعدني من الأرض، وسيغير منظر الخائن حين يظنه كل أحد إياي، ومع ذلك فإنه لما يموت شر ميتة أمكث في ذلك العار زمناً طويلاً في العالم)[2].

وكذا في الفصل الثامن والتسعين بعد المائة: (ولكنّ الله أحبني برحمته حتى أن

---

(١) إنجيل برنابا ٩٣/ (١٦-٢٠) وفصل ٩٤/ (١-٤).

(٢) إنجيل برنابا ١١٢/ (١٤-١٦).

كل عقوبة رفعت عني، بحيث إني أعذب في شخص آخر، فإني كنت أهلاً للقصاص لأن البشر دعوني إلهاً)(١).

وأفضل الفصول إيضاحاً لهذه الحقيقة هو الفصل السابع عشر بعد المائتين،حيث يذكر أن الجنود أوثقوا يهوذا الخائن بدلاً من المسيح وجرّوه بصورة ساخرة وعذّبوه، وأنه حاول توضيح الأمر وأنهم مخطئون، ولكن... دون جدوى!! كقوله: (لو قلتُ لك الحق لما صدقتني لأنك قد تكون مخدوعاً كما خدع الكهنة والفريسيون)(٢). وقال أيضاً: (صدقني يا سيدي إنك إذا أمرت بقتلي ترتكب ظلماً كبيراً؛ لأنك تقتل بريئاً، لأني أنا يهوذا الأسخريوطي لا يسوع الذي هو ساحر، فحولني هكذا بسحره)(٣). ولكنّ ذلك لم ينفعه، فجُلد ثم صلب.

ويقول برنابا في دقّة الشبه الظاهري بين المسيح ويهوذا: (الحق أقول إنّ صوت يهوذا ووجهه وشخصه بلغت من الشبه بيسوع أن أعتقد تلاميذه والمؤمنون به كافة أنه هو يسوع؛ لذلك خرج بعضهم من تعليم يسوع معتقدين أن يسوع كان نبياً كاذباً، وإنه إنما فعل الآيات التي فعلها بصناعة السحر، لأن يسوع قال: إنه لا يموت إلى وشك انقضاء العالم؛ لأنه سيؤخذ في ذلك الوقت من العالم)(٤).

ويقول في الفصل العشرين بعد المائتين: (فلما كان الناس قد دعوني الله وابن الله

---

(١) إنجيل برنابا١٩٨/ (١٣-١٤).

(٢) إنجيل برنابا٢١٧/ (٣٩)

(٣) إنجيل برنابا ٢١٧/ (٤٤-٤٥)

(٤) إنجيل برنابا٢١٧(٨٠-٨٣).

على إني كنت بريئاً في العالم، أراد الله أن يهزأ الناس بي في هـذا العـالم بمـوت يهـوذا، معتقدين أنني أنا الذي متّ على الصليب؛ لكيلا تهزأ الشياطين بي في يوم الدينونة)(١).

الحقيقة السادسة: المسيح مرفوع في السماء وانه سيعود

يصرح إنجيل برنابا أن المسيح لم يصلب كـما يُظـن وإنـما رفـع إلى السـماء، وأنـه سيعود إلى عالم الدنيا في يوم من الأيام حين يأذن الله بذلك.

في الفصل الثاني عشر بعد المائة يقول: (وعليه فإني على يقين مِن أن مَـن يبيعنـي يقتل باسـمي؛ لأن الله سيصعدني من الأرض، وسيغير منظر الخائن حتـى يظنـه كـل أحد إياي، ومع ذلك فإنه لما يموت شر ميتة أمكـث في ذلـك العـار زمنـاً طـويلاً في العالم...)(٢).

وفي الفصل التاسع عشر بعد المائتين يصرح برفعه وأنه موجود في السماء فيقول:

(وصعد الملائكة الذين كانوا حراساً على مريم إلى السماء الثالثة حيث كان يسوع في صحبة الملائكة، وقصّوا عليه كل شيء. فأنهض يسوع أمه والآخرين عن الأرض قائلاً: لا تخافوا لأني أنا يسوع، ولا تبكوا فإني حي لا ميت... أجـاب يـسوع معانقـاً أمه: صدقيني يا أماه لأني أقول لك بالحق، إني لم أمـت قـط لأن الله قـد حفظنـي إلى قرب انتهاء العالم)(٣).

(١) إنجيل برنابا ٢٢٠/ (١٩).

(٢) إنجيل برنابا ١١٢/ (١٤-١٦).

(٣) إنجيل برنابا ٢١٩/ (٥-١٧) - ٢٢٠/ (١-٣).

وفي الفصل الحادي والعشرين بعد المائتين يقول: (وفي اليوم الثالث قال يسوع: اذهبوا مع أمي إلى جبل الزيتون لأنني أصعد من هناك أيضاً إلى السماء وسترون من يحملني... ولكن يسوع أنهضهم وعزاهم قائلاً: لا تخافوا أنا معلمكم، ووبّخ كثيرين من الذين اعتقدوا أنه مات وقام قائلاً: أتحسبونني أنا والله كاذبيْن؟ لأن الله وهبني أن أعيش حتى قبيل انقضاء العالم كما قلت لكم، الحق أقول لكم إني لم أمت بل يهوذا الخائن)[1].

وفي الفصل الثاني والخمسين يصرح بالعودة: (ولكنني سأعود قبيل النهاية...)[2].

الحقيقة السابعة: أن المسيح عليه السلام نبي إلى بني إسرائيل خاصة

يشير إنجيل برنابا إلى حقيقة مهمة ينكرها المسيحيون اليوم -إن صح التعبير- وهي أن المسيح عليه السلام إنما بعث لبني إسرائيل خاصة، وبذلك لا نجد أساساً لصحة دعواهم بعالمية الدعوة النصرانية. ويذكر الإنجيل قصة المرأة الكنعانية مع المسيح عليه السلام فيقول في الفصل الحادي والعشرين: (وإذ بامرأة من كنعان مع ابنيْها قد جاءت من بلادها لترى يسوع، فلما رأته مع تلاميذه صرخت: يا يسوع بن داود! ارحم ابنتي التي يعذّبها الشيطان، فلم يُجِب يسوع بكلمة واحدة لأنهم كانوا من غير أهل الختان، فتحنّن التلاميذ وقالوا: يا معلم تحنّن عليهم، انظر ما أشد صراخهم وعويلهم، فأجاب يسوع: إني لم أرسل إلا إلى شعب إسرائيل...)[3].

---

(١) إنجيل برنابا ٢٢١/ (٨-١٠)-(١٤-١٧) وانظر فصل ٢١٧/ (٢٠).

(٢) إنجيل برنابا ٥٢/ (١٥).

(٣) إنجيل برنابا٢١/ (١٧-٢١).

ثم يذكر بعد ذلك أن المسيح قد أشفق عليها وحرّر ابنتها فآمنت هي وأقرباؤها بشريعة المسيح على أثر ذلك. ووجه الشاهد القوي هو أسلوب الاستثناء بعد النفي ليفيد تأكيد هذه الفكرة -أي فكرة خصوصية رسالته إلى نبي إسرائيل-.

وفي الفصل الثاني والخمسين يشير إلى ذلك أيضاً فيقول: (لعمر الله الذي نفسي واقفة في حضرته إني رجل فانٍ كسائر الناس، على أني وإنْ أقامني الله نبيّاً على بيت إسرائيل لأجل صحة الضعفاء واصطلاح الخطاة خادم الله)[(١)].

وكذلك في الفصل الثاني والثمانين: (قالت المرأة لعلّك أنت مِسّيا أيها السيد؟ أجاب يسوع: إني حقاً أُرسلت إلى بيت إسرائيل نبي خلاص ولكن سيأتي من بعدي مِسّيا المرسل من الله لكل العالم الذي لأجله خلق الله العالم)[(٢)].

الحقيقة الثامنة: يرى أنّ الذبيح من ابناء إبراهيم هو إسماعيل لا إسحاق

وهو بذلك يوافق القرآن ويخالف الأناجيل الأخرى في ذلك؛ فليس الذبيح من أبناء إبراهيم إسحاق - كما يُظن-، بل هو إسماعيل عليه السلام. يقول في الفصل الثالث عشر:

(فأجاب الملاك جبريل: انهض يا يسوع واذكر إبراهيم، الذي كان يريد أن يقدّم ابنه الوحيد إسماعيل ذبيحة لله ليتمّ كلمات الله، فلم تقوَ المِدْيَة على ذبح ابنه، قدّم عملاً

---

(١) إنجيل برنابا٥٢/ (١٢-١٣).

(٢) إنجيل برنابا ٨٢/ (١٥-١٨)

بكلمتي كبشاً، فعليك أن تفعل ذلك يا يسوع خادمَ الله)[(١)]. وفي الفصل التاسع والتسعين يقول:

(وأحبّ إبراهيم ابنه إسماعيل أكثر قليلاً مما ينبغي، لذلك أمر الله إبراهيم أن يذبح ابنه ليقتل المحبة الأثيمة في قلبه، وهو أمر كان فَعَله لو قطعت المِدية)[(٢)].

الحقيقة التاسعة: التبشير بالنبي ﷺ بالنص الصريح

وهي من أهم الحقائق التي نتحدث عنها ههنا، وقد زخر إنجيل برنابا بالحديث عن هذا التبشير صراحة لا إشارة، وقد ذكر ذلك بالنص الصريح (محمد) عليه الصلاة والسلام أكثر من عشر مرات. وقد يعترض البعض على ذلك الأسلوب -أي التصريح- منهم الدكتور سعادة؛ (حيث زعم أن أصل الإنجيل عربي، بدليل أنه وُجد على النسخة الإيطالية تعليقات عربية، وأنه صرّح في التبشير باسم (محمد)، مع أن المعهود في البشارات الرمز لا النص. لكن يمكننا أن نقول أن وجود تعليقات عربية يدل على أن بعض من قرأ هذه النسخة يعرف العربية على ضعفٍ فيها، لأنه مستقيم التعبير أحياناً سقيم العبارة في أحياناً كثيرة. ومن الغريب أن يُتخذ من التعليقات العربية دلالة على أصله العربي، ولا يُتخذ من أصله الإيطالي دليلاً على أصله المسيحي، ومن ناحية أخرى فإنّ كوْن التبشير بمحمد صريحاً فيه وليس بتلميح يمكننا أن نقول أيضاً بأن كل التبشيرات في الكتب السماوية ليست بتلميح، نعم بعضها رمز وتلميح، ولكن ليس معنى ذلك النفي بالتصريح، وعلى فرض أن كل

---

(١) إنجيل برنابا ١٣/ (١٥-١٧).

(٢) إنجيل برنابا ٩٩/ (١٠).

تبشير تلميح لا تصريح فالنص الإيطالي ترجمة لا نص، وعسى أن يكون المترجم فهم المعنى، فلم يسعفه في لغته التلميح فنطق بالصريح كما فعل المسيحيون في كثير مما ترجموا من كتب أصلها العبري)(١).

يشير النص (الفصل) التاسع والثلاثين من إنجيل برنابا إلى هذا التبشير من خلال قصة آدم وحواء فيقول: (فلما انتصب آدم على قدميه رأى في الهواء كتابة تتألق كالشمس، نصها: لا إله إلا الله ومحمد رسول الله، ففتح حينئذٍ آدم فاه وقال: أشكرك أيها الرب إلهي؛ لأنك تفضّلت فخلقتني، ولكنْ أضرع إليك أن تنبّأني ما معنى هذه الكلمات «محمد رسول الله» فأجاب الله: مرحباً بك يا عبدي آدم، وإني أقول لك إنك أول إنسان خلقت، وهذا الذي رأيته إنما هو ابنك الذي سيأتي إلى العالم بعد الآن بسنين عديدة، وسيكون رسولي الذي لأجله خلقت كل الأشياء، الذي متى جاء سيعطي نوراً للعالم...)(٢).

وهنا نذكر بعضاً من النصوص التي صرّحت بذكر اسمه ﷺ باللفظ الصريح (محمد). وكثيراً ما يرد لقب «مِسّيا» في إنجيل برنابا وهو يعني النبي ﷺ، ففي الفصل السابع والتسعين يقول: (فقال حينئذٍ الكاهن، ماذا يسمى مسيا وما هي العلامة التي تعلن مجيئه، أجاب يسوع: إن اسم مسيا عجيب، لأن الله نفسه سمّاه لما خلق نفسه ووضعها في بهاء سماوي قال الله: «اصبر يا محمد؛ لأني لأجلك أريد أن

---

(١) محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام هكذا بشرت الأناجيل - بشرى زخاري ميخائيل ص ١١٢ - ١١٣.

(٢) إنجيل برنابا ٣٩/ (١٤-٢١).

أخلق الجنة والعالم وجمّاً غفيراً من الخلائق التي أهبها لك!، حتى أن من يباركك يكون مباركاً، ومن يلعنك يكون ملعوناً، ومتى أرسلتُك إلى العالم أجعلك رسولي للخلاص...) (١).

ويقول في الفصل الثاني عشر بعد المائة بعد أن يتحدث عن يهوذا الأسخريوطي:

(... ولكن متى جاء محمد رسول الله المقدس تُزال عني هذه الوصمة وسيفعل الله هذا؛ لأني اعترفت بحقيقة مسيا الذي سيعطيني هذا الجزاء، أي أن أعرف أني حيّ وأني بريء من وصمة تلك الميتة) (٢).

وهو دائماً يتحدث عنه -عليه الصلاة والسلام- على لسان عيسى عليه السلام بأنه سيأتي إلى العالم في النهاية ويملأ الأرض رحمة وعدلاً ونوراً، يقول في الفصل الثالث والستين بعد المائة:

(أجاب التلاميذ مَن عسى أن يكون ذلك الرجل الذي تتكلم عنه الذي سيأتي إلى العالم؟ أجاب يسوع بابتهاج قلب: إنه محمد رسول الله ومتى جاء إلى العالم فسيكون ذريعة للأعمال الصالحة بين البشر بالرحمة الغزيرة التي يأتي بها، كما يجعل المطر والأرض تعطي ثمراً بعد انقطاع المطر زمناً طويلاً، فهو غمامة بيضاء ملأى برحمة الله، وهي رحمة ينثرها الله رذاذاً على المؤمنين كالغيث) (٣).

---

(١) إنجيل برنابا ٩٧/ (١٣-١٧).

(٢) إنجيل برنابا ١١٢/ (١٧-١٩).

(٣) إنجيل برنابا ١٦٣/ (٧-١١). وانظر الفصل ٤١/ (٣٠-٣٢)، والفصل ١٣٦/ (١٥-٢٠)، والفصل ١٩٢/ (٥-٦).

ويقول في الفصل العشرين بعد المائتين بعد الكلام عن الخائن يهوذا:

(وسيبقى هذا على أن يأتي محمد رسول الله الذي متى جاء كشف هذا الخداع -أي ظنهم أن المسيح صلب- للذين يؤمنون بشريعة الله)[١].

ويعترف المسيح عليه السلام في أكثر من موضع أنه ليس مسيا الذي يتكلم عنه، فيقول في الفصل السادس والتسعين: (أجاب الكاهن: إنه مكتوب في كتاب موسى أن إلهنا سيرسل لنا مسياً الذي سيأتي ليخبرنا بما يريد الله، وسيأتي للعالم برحمة الله، لذلك أرجوك أن تقول لنا الحق، هل أنت مسيا الله الذي ننتظره؟ أجاب يسوع: حقاً إن الله وعد هكذا ولكني لست هو؛ لأنه خُلق قبلي! وسيأتي بعدي)[٢].

وفي الفصل الثامن والتسعين بعد المائة يؤكد هذا الاعتراف فيقول:

(أجاب يسوع: عساني أن أنال من الله قصاصاً في هذا العالم؛ لأني لم أخدمه بإخلاص كما كان يجب أن أفعل. ولكن الله أحبني برحمته، حتى أن كل عقوبة رفعت عني، بحيث أني أعذب في شخص آخر، فإني كنت أهلاً للقصاص لأن البشر دعوني إلهاً، ولكن لما كنت قد اعترفتُ لا بأني لست إلهاً فقط كما هو الحق، بل قد اعترفت أيضاً أني لست مسيا، فقد رفع الله لذلك العقوبة عني...)[٣].

---

(١) إنجيل برنابا ٢٢٠/ (٢٠).

(٢) إنجيل برنابا ٩٦/ ٣-٥).

(٣) إنجيل برنابا ١٩٨/ (١٢-١٥).

هذه باختصارٍ -غير مُخِلّ- بعض الحقائق التي حواها جنبات هذا الإنجيل، ولعلّ المتفحّص لها يجد نفسه متيقنة بأسباب منْع القراءة في هذا الإنجيل في فترة من فترات التاريخ التي امتازت بالعصبية، وإلا فَلِمَ يُمنع إن لم يكن من الخطورة بمكان على الكنيسة ومبادئها.

ولا نجد مندوحة للكلام عن باقي الحقائق الأخرى المهمة، ولكننا نذكرها على وجه السرعة:

فهو يشير إلى ضرورة حسن الخلق والإصلاح، ويحثّ على الزهد، ويأمر بالصلاة والتصدّق والصيام، ويحرّم الرذائل من الربا والزنا والقتل والبخل والسرقة، ويشرّع العقوبات لذلك. ويذكر صفات الخالق على نحوٍ مشابه لما جاء في القرآن، ويذكر أحوال الآخرة والجنة والنار، وما للأبرار من نعيم وما للكاذبين من عذاب، ويحث على الجهاد في سبيل الله حتى الموت... إلى غير ذلك من الحقائق المهمة.

ورغم هذا التوافق الواضح بين القرآن وإنجيل برنابا في كثير من القضايا، إلا أنّ ثمّة اعتراضات عليه ندرج بعضها ههنا(١):

١ - أنه يكاد يسقط دائماً عندما يتحدث عن شفاعة عباد الله الصالحين، إذ ينسى أنها بإرادة الله، وبالتالي فإنّ طلبها من المخلوق أو باسم مخلوق شرك.

٢- لم يعترض على تسمية مخلوقين من مخلوقات الله بكلمة «رب» هما «مسيا»

---

(١) مقدمة محقق إنجيل برنابا- سيف الله فاضل ص ١٢-١٣.

و«المسيح»، على أنّ كلمة «رب» قد تكون بمعنى معلّم، عند ذاك فلا اعتراض لأن محمداً أو عيسى بن مريم عليهما السلام علّما البشر مما علّمهما الله، مما يجعل تسميتهما معلّمين مقبولاً.

٣- لم يعترض على سجود المجوس للمسيح -عليه السلام-، والمؤكّد أن السجود ينبغي أن لا يكون لغير الله، على أن ذلك أيضاً قد يُقبل إذا لاحظنا أنّ المجوس يعبدون الأصنام، وأنها سرْد لما حدث بصرف النظر عن رأيه -أي برنابا-، ولكنّ الذي لا يقبله مسلم أن يركع الصدّيقون لغير الله، وقد ورد أن مريم العذراء -عليها رضوان الله- وتلاميذ المسيح -عليه السلام- ركعوا أمام الملائكة المقرّبين.

٤- في أكثر من مكان دعي الله على أنه أبوهم، وهو ما يناقض القرآن الكريم نصاً وموضوعاً، وكل هذه المناقضات لا تسمح بأن يكون كاتب إنجيل برنابا مسلم ذو دراية بالقرآن الكريم.

الفرع الخامس: اختلاف هذا الإنجيل عن الأناجيل الأربعة(١)

١- الأناجيل الأربعة تصوّر العقيدة تصويراً أقنومياً، بينما هي في برنابا عقيدة سهلة واضحة.

٢- تصور الأناجيل الأربعة عيسى على أنه ابن الله، ويصور إنجيل برنابا على أنه

(١) انظر كتاب نظرات في إنجيل برنابا المبشر بنبوة النبي ﷺ - محمد علي قطب ص٧٨، وانظر مقدمة المترجم لإنجيل برنابا، د.خليل سعادة ص ٢٨-٢٩.

نبي الله، ويؤكد ذلك على مرأى ومسمع من ستمائة ألف جندي وسكان اليهودية من رجال ونساء وأطفال.

٣- أنّ الابن الذي عزم إبراهيم على تقديمه ذبيحة لله إنما هو إسماعيل لا إسحق، وأن الموعد إنما كان بإسماعيل -عليهم السلام-.

٤- أنّ مِسْيا أو المسيح المنتظر ليس هو يسوع بل محمد، وقد ذكر محمداً باللفظ الصريح -كما مرّ-.

٥- في الأناجيل الأربعة أن عيسى صُلب، وفي برنابا أن عيسى لم يصلب ولم يمت! بل رُفع لأنه من قبلُ وُعِد بذلك، وأن الذي صلب إنما كان يهوذا الخائن الذي شبّه به، فجاء مطابقاً للقرآن:

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ [النساء:١٥٧]، وأن جانباً من الناس لمّا سمع مقالة الصلب اعتقد أن المسيح نبي كاذب؛ لأنه وعد بأنه لن يموت إلا قرب قيام الساعة.

٦- ويباين الأناجيل الأخرى أيضاً في بعض أساليبه؛ لأنه كثيراً ما يخوض في المسائل الفلسفية والمباحث العلمية على حد زعم الدكتور سعادة... والحقيقة التي لا مِراء فيها أن كاتب إنجيل برنابا كان على جانب كبير من الفلسفة وسموّ المدارك وقوة الحجة وشدة العارضة وجلاء البيان، وأن مباحثه الفلسفية في الجسد والحس والنفس من الوجهة الدينية لَمِن أسمى ما كتب الباحثون الدينيون فى هذا الموضوع.

الفرع السادس: أوجه الافتراق بين القرآن وإنجيل برنابا [١]

يخالف ما هو وارد في إنجيل برنابا بعض التعاليم التي وردت في القرآن الكريم منها:

١- القول بأن المسيح ابن الله يعتبره إنجيل برنابا كفر، بينما يعتبره القرآن الكريم شركاً فقط [٢].

٢- ذكر إنجيل برنابا أن الله لم يرسل رسولاً للجن، وهذا يصدق رسالة النبي ﷺ، ولكنه لا يصدق بعدها فرسول الله ﷺ رسول للجن أيضاً.

٣- ذكر الإنجيل أنّ الذين يحرسون النار شياطين، وأثبت القرآن خطأ ذلك، كما أثبت عدم وجود أكثر من شيطان في بعض البشر... مما يدل على أن كاتبه لم يطّلع على القرآن الكريم، ولم يكن مسلماً على سنة النبي عليه الصلاة والسلام.

٤- يخطئ إنجيل برنابا فيما أورده القرآن صراحة من أنّ المسيح -عليه السلام- كلّم الناس في المهد فيعتبر أن ذلك من قبيل الوحي تماماً كما جاء في إنجيل متّى ٢: ١٢.

---

(١) انظر مقدمة محقق إنجيل برنابا، سيف الله فاضل ص ١٤-١٦

(٢) قلت: التعبير عن هذا بالشرك أدق، لكنّ المؤدى والحاصل واحد وهو الكفر؛ لأن كل مشرك كافر؛ ولذا قال تعالى ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:٧٢]، وقال أيضاً ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة:٧٣].

٥- يظن أن الله كلّم الحواريين ليأمرهم بالإيمان بالمسيح عليه السلام، مع أن الواقع أن ذلك كان من قبيل الوحي فقط.

٦- لم يذكر أن المسيح خلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله، ولا أنه أخبرهم بما يخبئون في بيوتهم.

٧- ذكر أن ميلاد المسيح كان في مأوى الرعاة، مع أن القرآن الكريم أثبت أن ذلك أسفل نخلة في مكان منعزل، ولو أن مسلماً أراد أن يزوّر إنجيلاً لبدأ بالأسس والفروع التي أوضحها القرآن الكريم عن الإنجيل.

٨- تعبيرات وألفاظ إنجيل برنابا تشبه من كل وجه التعبيرات والألفاظ الكتابية، فلا يمكن أن يقبل مسلم أن يُقال أنّ الله روح، فالروح عبد من عباد الله، وأن يقال لفظ مبارَك على الله؛ فهو يعني أن هناك من باركه! والحق أن الله بارك ذاته بقوله (تبارك)، أو أن يقال (الإله الكبير بعلاً)؛ فبعل ليس إلهاً وإنْ عبده الكنعانيون، وفي بابها كثير.

والحكمة التي تميّز بها كاتب إنجيل برنابا أو ما قاله على لسان المسيح عليه السلام -على وجه الخصوص- تبين أنها كلام نبي أو عبد من عباد الله الصالحين، فإن الله يؤتي الثروة وأسباب الدنيا لأي بشر، ولكنه لا يؤتي الحكمة إلا لأنبيائه وعباده الصالحين، مما يؤكد أن كاتب الإنجيل هو برنابا، وأن إنجيل برنابا ليس هو الإنجيل بل هي أقوال وأعمال المسيح، وأنه قد حدثت به بعض الأخطاء كنتيجة لتأخر برنابا

في كتابة إنجيله إلى ما بعد ارتفاع المسيح -عليه السلام-، وإلى نسخه وترجمته أكثر من مرة، لأني على يقين أن الله لا يمكن أن يرسل المسيح بتعاليم تخالف في قليل أو كثير ما أرسل به موسى أو النبي عليهما السلام.



الخاتمة

١ - كان برنابا - على الأقل - أحد الرسل السبعين، وكان حسن الخلق، سموح النفس ذا شهامة وصاحب بصيرة.

٢ - رافق برنابا بولس في جولاته التبشيرية وآمن على يده الكثير، إلا أن برنابا فارق بولس لسبب متعلق بالتوحيد وتعطيل الأحكام.

٣- النسخة الأصلية لإنجيل برنابا كانت باللغة الإيطالية ظلّت تتنقّل حتى وصلت إلى يد الراهب «فرامينو» الذي طالعها ثم أسلم، وهو مترجم للّغة الإنكليزية ومنها إلى العربية.

٤ - ثبوت نسبة هذا الإنجيل إلى برنابا، يدل على ذلك سبب كتابته له ووجوده في بيئة نصرانية متعصبة، ومنع قراءته في فترة معينة، ومخالفاته للقرآن... وغير ذلك.

٥- شبهة أن أصل هذا الإنجيل عربي هي شبهة مردودة، يدل عليه أنه لو كان كذلك لما ضاع واندثر ذكره! بل لوجدته في فهارس الكتب العربية ولاستشهد به علماء المسلمين في الرد على النصارى. ويدل على ذلك سلامة التعبير فيه أحياناً وضعفها أحياناً أكثر، ويدل عليه وجوب الختان إذ إنه كان في شريعة عيسى وموسى من قبله -عليهما السلام-.

٦- أشار الإنجيل إلى حقائق كثيرة ومهمة، من التوحيد لله وعدم ألوهية المسيح،

وإثبات بشريته ونفي نبوة المسيح ونفي التثليث، ولا يرى الطرق الجديدة في المسيحية إلا اختراعات من عمل الناس، وهو ينفي الصلب، ويؤكد أن المسيح مرفوع في السماء وأنه سيعود في آخر الزمان، وأن المسيح -عليه السلام- مبعوث إلى بني إسرائيل خاصة، وهو يرى أن الذبيح من أبناء إبراهيم هو إسماعيل لا إسحاق.

٧- يشير الإنجيل إلى حقيقة مهمة جِدّ مهمة، وهي التبشير بالنبيﷺ باللفظ الصريح والإشارة، وأنه المنقذ والمخلص للعالم من الظلام.

٨- رغم ما حواه من حقائق، إلا انه لم يسلم من وجود التعارضات فيه، عندما يتحدث عن شفاعة عباد الله الصالحين، وتسمية بعض المخلوقات باسم "رب"، وسجود المجوسي للمسيح عليه السلام، ودعوة الله بأنه أبوهم، مما يمنع كل ذلك أن يكون كاتبه مسلم عارف بالقرآن.

٩- يختلف إنجيل برنابا عن الأناجيل الأربعة في أمور جوهرية: كتصوير العقيدة، وحقيقة المسيح، ومن هو الذبيح ومن هو مِسيا، ومسألة الصلب، والأسلوب.

١٠- يفترق الإنجيل عن القرآن في اعتبار ما هو كفر وما هو شرك، وفي رسالته ﷺ للجن، وفيمن يحرس النار، وفي تكليم المسيح للناس في المهد وميلاد المسيح، كما يفترق عنه في ألفاظه وتعبيراته...

١١- القارئ لهذا الإنجيل والواقف على حقائقه، يعرف لماذا منعته الكنيسة في فترة تاريخية ماضية ولماذا لا تعترف به اليوم!

-انتهى بحمد الله-

المراجع

١ - القرآن الكريم.

٢- إنجيل برنابا- ترجمة د. خليل سعادة، تحقيق سيف الله فاضل. دار القلم- الكويت- الطبعة الأولى سنة ١٩٩٣م.

٣- دائرة المعارف- المعلم بطرس البستاني. مؤسسة مطبوعاتي إسماعيليان طهران - ناصر خسرو سنة ١٨٨٢م.

٤- دائرة المعارف الكتابيّة- مجموعة من الدكاترة القساوسة. دار الثقافة- القاهرة. الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

٥- الدرر النفيسة في مختصر تاريخ الكنيسة- أغناطيوس أفرام الأول برهوم. مطبعة السلامة- حمص سنة ١٩٤٠م.

٦- العقيدة الإسلامية وأسسها- عبد الرحمن حبنكة الميداني. دار القلم - دمشق+ بيروت. الطبعة السابعة سنة ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.

٧- محمد رسول الله ﷺ: هكذا بشرت الأناجيل- بشرى زخاري ميخائيل. عالم الكتب- القاهرة.

٨- نظرات في إنجيل برنابا المبشّر بنبوة النبي محمد ﷺ محمد علي قطب. مكتبة القرآن - بولاق- القاهرة.

٩- النصرانية من التوحيد إلى التثليث- د.محمد الحاج. دار القلم- دمشق+ الدار الشامية-بيروت. الطبعة الأولى سنة ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

* * *

المحتويات









دار البداية ناشرون وموزعون
عمان - شارع الملك حسين - مجمع الفحيص التجاري
هاتف: ٠٦٧٩ ٤٦٤٠ ٦ ٩٦٢+ تلفاكس: ٤٦٤٠٥٩٧ ٦ ٩٦٢+
ص.ب ٥١٠٣٣٦ عمان ١١١٥١ الأردن
Info.daralbedayah@yahoo.com

دار المستقبل للنشر والتوزيع
عمان - وسط البلد - أول شارع الشابسوغ
تلفاكس: ٤٦٥٨٢٦٣ ٦ ٩٦٢+
ص.ب ١٨٤٢٤٨ عمان ١١١١٨ الأردن
info.daralmostaqbal@yahoo.com


ISBN 995745252-5